مصر . ولوبية وفيها : مصر ، والقلزم ، والحبشة ، والبربر وما والاها ، والبحر الجنوبى . وليس فى هذه البلاد خنزير برىّ ولا أيل ولا عير ولا تيوس . وإتيوفيا[٢] وفيها : تهامة ، واليمن ، والسند ، والهند ، والصين . وإسقوثيا[٣] وفيها : أرمينية ، وخراسان ، والترك ، والخزر » .

ويلاحظ هنا أن أقسام الأرض الأربعة هذه يونانية الأصل ؛ إلا أن مدلولاتها عند العرب كانت تختلف عنها عند الأغارقة .

والصقالبة الذين ورد ذكرهم فى كلامه هم المسمون الآن « بالسلاف » وهم شعوب كانت متاخمة لبلاد المسلمين ولبلاد الروم ؛ غير أنه لم يبلغ علماء العرب من أخبارهم إلا شىء يسير لا يعبأ به .

ولابن خرداذبة تاريخ : من أجمع الكتب ، وأبرعها نظما ، وأحواها لأخبار الأمم وملوكها .

البيرونى

مولده ونشأته :

هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيرونى الخوارزمى ، المولود

---

(٢) إتيوبيا فى الأصل مشتقة من كلمتين يونانيتين ، معناهما الوجوه المحروقة من الشمس . وكان اليونان يطلقونها على الجهات الواقعة إلى جنوب مصر ، ويسكنها قوم سود الوجوه .

(٣) إسقوثيا : كان اليونان يطلقون هذا الاسم على القبائل المتبربرة البدو الرحل ، فى جنوب شرقى أوروبا وشمال غربى آسيا .

« بخوارزم » المسماة أيضا « كاث » ، عام (٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م) . يقال إنه على أثر حادث ، اضطر إلى أن يغادر مدينة خوارزم إلى مكان فى شمالها يسمى « كوركانج » . وبعد أن أقام به مدة تركه وذهب إلى جرجان ، واتصل هناك بشمس المعالى [1] قابوس بن وشمكير ؛ من أمراء وأدباء الدولة الزيارية بجرجان (٣٦٦ — ٤٠٣ هـ ، ٩٧٦ — ١٠١٢ م) . ألف له كتابا جليلا وأسماه « الآثار الباقية عن الأمم الخالية »

و « يبحث فيما هو الشهر واليوم والسنة عند مختلف الأمم القديمة ، من أشوريين ويونانيين إلى زمنه . وفى الكتاب جداول تفصيلية : للأشهر الفارسية ، والعبرية ، والرومية ، والهندية ، والتركية ؛ تبين كيفية استخراج التواريخ بعضها من بعض . وتجد به أيضا جداول لملوك آشور وبابل والكلدان والقبط واليونان ، قبل النصرانية وبعدها ؛ وكذا ملوك الفرس قبل الاسلام على اختلاف طبقاتهم . ولم تقتصر أبحاث الكتاب على ذلك ؛ بل أتى على ذكر المتنبئين وأممهم من أهل الأوثان

---

(١) تولى ملك جرجان وطبرستان سنة ٣٦٦ هـ ، وحدث بينه وبين عضد الدولة بن بويه حرب صار بعدها قابوس طريدا ؛ فالتحق بسبكتكين عند ظهور الدولة الغزنوية ؛ ووعده هذا الأخير برده إلى ملكه . ثم استطاع قابوس بمعاونة أحد قواده أن يستولى على الجبل ، وكتب إليه أهل جرجان يستدعونه فلبى دعوتهم وعاد أخيرا له أكثر مما كان يملك ، إذ أصبح ملكه يشمل : جرجان ، واستراباذ ، ومملكة الجبل جميعها ، وطبرستان . وحالف قابوس سبكتكين الغزنوى وقوى أمره .

والبدع فى الاسلام ؛ وتعرض لأعيادهم وتقاليدهم وعاداتهم » .

ومن هذا الكتاب ، يستدل أيضا على أن البيرونى كان أول من استنبط تسطيح الكرة . وقد فصل ذلك فى كتابه المذكور ، الذى يدل على أن له استنباطات جليلة فى الفلك والرياضيات . وقد ترجم « سخاو » المستشرق الألمانى هذا الكتاب إلى الانجليزية ، وطبع سنة ١٨٧٩ م فى لندن ، وطبعت نبذ منه فى باريس باللغة الفرنسية .

تنقلاته العلمية ومؤلفاته :—

(١) تمكن البيرونى بذكائه وعلمه أن يصبح ذا مقام عظيم فى الدولة الغزنوية . فبعد أن استولى سبكتكين سنة ٩٩٦ م على جميع خوارزم ، نزل البيرونى « كوركانج » ، وذهب إلى الهند ، وجاب أنحاءها ، وحذق لغتها وقام ، بأبحاث علمية كان لها تأثير فى تقدم بعض العلوم . وفى أثناء إقامته بالهند كان يعلم الفلسفة اليونانية ، ويتعلم هو بدوره الفلسفة الهندية ، فأصبح من أوسع علماء الاسلام اطلاعا على آداب الهند وعلومها .

تناول كتبهم بالترجمه أو التصحيح أو النقد ، ومما قاله فى إحدى كتبه : « وعملت من السند هند كتابا سميته « جوامع الموجود فى خواطر الهنود » فى حساب التنجيم ، جاء ما تم منه خمسمائة وخمسين ورقة . . وهذبت زيج الأركند ، وجعلته بألفاظى ، إذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة . وعملت تذكرة فى الحساب والعد بأرقام السند والهند فى ثلاثين ورقة ، وكيفية رسوم الهند فى تعلم الحساب .

وعملت مقالة فى الجوابات على المسائل الواردة من منجمى الهند ، ومقالة فى حكاية طريقة الهند فى استخراج العمر . وترجمت مقالة للهند فى الأمراض التى تجرى مجرى العقوبة . وغير ذلك » .

ويحدثنا التاريخ بأن البيرونى صحب السلطان محمودا الغزنوى فى غزوته، سنة(١٠٠٠ — ١٠١١م) ، وأصلح ما وجده من الخطأ فى (خريطة) الهند الشمالية ، وضبط مواقع مدنها ، وفعل ما فعله غيره من المتقدمين فى تحقيق البلدان الاسلامية .

(٢) وألف كتاب تاريخ الهند . وقد ترجمه أيضا « سخاو » ، وطبع الأصل فى لندن سنة ١٨٨٧ م. تناول فيه لغة أهل الهند وعاداتهم وعلومهم ، واعتمد عليه « سمث » وغيره من المؤلفين عند بحثهم فى رياضيات الهند والعرب .

(٣) وله كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » . وقد ترجم إلى الانجليزية سنة ١٨٨٧ م .

(٤) القانون المسعودى : ألفه لمسعود بن محمود الغزنوى . وهو كتاب نفيس لا نظير له . يبحث فى مبادىء علم الهيئة بايجاز ، وفى حساب المثلثات ، ودوائر الكرة السماوية ، وما يحدث بسبب حركة الكرة السماوية اليومية الظاهرية حول الأرض من مطالع البروج فى الفلك المستقيم ؛ ثم معرفة عروض البلدان من ظل الشواخص ؛ كما يبحث أيضا فى حركات الشمس والقمر وتوضيحها بأشكال هندسية ، واتصالات النيرين وكسوفاتها ؛ وحساب رؤية الهلال ، والكواكب

الثابتة ، ومنازل القمر فيها ، وغير ذلك من المباحث الفلكية الرياضية . التى أثبتت له شهرة و نبوغا فى عالم الرياضيات والهيئة .

قال سيديو عن البيرونى : « إن أبا الريحان اكتسب معلوماته المدرسية البغدادية ، ثم نزل بين الهنود حين أحضره الغزنوى ، فأخذ يستفيد منهم الروايات الهندية المحفوظة لديهم : قديمة أو حديثة ، ويفيدهم استكشافات أبناء وطنه ، ويبثهالهم فى كل جهة مر بها. وألف لهم ملخصات من كتب هندية وعربية. وكان مشيرا وصديقا للغزنوى ، استعد حين أحضره بديوانه لاصلاح الغلطات الباقية فى حساب بلاد الروم والسند وما وراء النهر . وعمل قانونا جغرافيا كان أساسا لأكثر القسموغرافيات المشرقية . نفذ كلامه مدة فى البلاد المشرقية ، ولذا استند إلى قوله سائر المشرقيين فى الفلكيات ، واستمد منه أبو الفداء الجغرافيا فى جداول الأطوال والعروض ، وكذا أبو الحسن المراكشى » .

والحق أن البيرونى كان أنبغ أهل زمانه فى الرياضيات . ولولاه لكان تاريخ الرياضيات عند الهنود والعرب غامضا جدا .

مؤهلاته الأخرى :—

هذا ، ويقال إنه كان بينه و بين ابن سينا مكاتبات فى أبحاث مختلفة ورد أكثرها فى كتب ابن سينا . وهو وابن سينا من الذين شاركوا ابن الهيثم فى رأيه القائل بأن شعاع النور يأتى من الجسم المرئى إلى العين ، وهذا ما يقول به رجال الطبيعة اليوم .

وقد استطاع بتجاربه العديدة أن يوجد الوزن النوعى لثمانية

عشر عنصرا و مركبا ؛ بعضها من الأحجار الكريمة . وله كتاب فى خواص عدد كبير من العناصر والجواهر، وفوائدها التجارية والطبية. ومؤلفاته تربو على المائة والعشرين : فى الفلك ، والأرصاد ، والأزياج وأحكام النجوم ، وهيئة العالم ، والرياضة .

وتعتبر مؤلفاته هذه أبلغ رد على ادعاءات المتعصبين الذين يزعمون أن العرب والمسلمين لم يكونوا مخترعين مستنبطين ، وأنهم لم يكونوا إلا نقلة عن غيرهم . وقد نقل الغربيون عنه كثيرا من العلوم الرياضية والنظريات الفلكية التى كشفها ، فلاغرو إذا اعتبره سخاو أكبر عقلية عرفها التاريخ فى كل عصوره . وهذا المستشرق الذى عرف للبيرونى فضله ونشره بين الناس ؛ يدعو إلى تأليف جمعية لتمجيده وإحياء ذكره ، تسمى جمعية البيرونى .

وقد توفى فى «غزنة» من أعمال أفغانستان، سنة ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨م تاركا وراءه ذخائر وكنوزا من العلوم الرياضية والفلكية .

المسعودي

(المتوفى سنة ٣٤٦ هـ — ٩٥٦ م)

مولده ونشأته :—

هو قطب الدين أبو الحسن على بن عتبة. ولد فى بغداد فى حدود القرن التاسع للميلاد . وأقبل على طلب العلم حتى حل منه فى أعلى منار . وضرب فى علم الجغرافيا والتاريخ بسهم نافذ . وقد أعانه على التبرز والفوق فى علمى التاريخ والجغرافيا ، رحلاته الكثيرة ؛ فانه جاب الآفاق حتى بلغ الشرق والغرب. وقال عن نفسه :

ينجم أطراف البلاد فتارة لدى شرقها الأقصى وطورا إلى الغرب
سرى الشمس لاينفك تقذفه النوى إلى أفـــق ناء يقصر بالركب

رحلاته وتنقلاته العلمية :—

يعتبر المسعودى من رجال الرحلات عند المسلمين ؛ فانه قد تنقل من بلد إلى بلد : فطاف فى فارس ، ونزل على اصطخر ، وأقام بها مدة . ثم رحل إلى الهند وفحص بعض أقطارها ؛ وكان قد رآهـا مرة قبل أربع سنوات. وزار سيلان والتبت والأصقاع التى حول بحر قزوين . وعبر البحر الجنوبى وجاب سواحل إفريقية الشرقية . وزار السودان وبلاد العرب الجنوبية والشام والروم . وكان فى أواخر أيامه يقيم تارة بمصر وتارة بالشام . وتواريخ رحلاته لهذه البقاع غير معروفة على وجه الدقة ؛ إلا أن لدينا من الأسباب ما يفيـد أنه انقطع عن الرحلة حوالى سنة ٩٤٠ م . وقد لزم بيته مشتغلا بالتآليف الجغرافية أيام الخليفة المطيع (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) وكانت وفاته بالفسطاط .

مصنفاته :—

لا بد أن نشير هنا إلى أن فنون التاريخ قبل المسعودى كانت كثيرة : منها ما هو خاص بالسير والمغازى ؛ وكان ابن إسحـاق من أشهر من كتب فيه ، كما أن الكلبى وابنه كتبا فى فن النسب ، والواقدى والمدائنى وأبو مخنف فى الفتوح ، وابن قتيبة والهيثم ابن عدى وابن واضح اليعقوبى فى تاريخ الملوك . وألف فى هذه الفنون فى العصر الأول العباسى مئات من الـكتب : منها المنفرد بفن ،

ومنها الشامل لعدة فنون ؛ حتى كان الامام ابن جرير الطبرى هو القدوة فى تأليف التواريخ العامة الجامعة لأكثر هذه الفنون . أما المسعودى فانه زاد على هذه المباحث العامة مباحث أخرى : اجتماعية، وسياسية ، وطبيعية ، وجغرافية ، وأدبية .

المسعودى:

(١) كتاب « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان » . قدم فيه القول بهيئة الأرض ومدنها وجبالها وأنهارها ومعادنها ، وأخبار الأبنية العظيمة ، وشأن البداءة ، وأصل النسل ، وانقسام الأقاليم ، وتباين الناس . ثم أتبع بأخبار الملوك الغابرين ، والأمم الداثرة فى القرون الخالية ، وأخبار الأنبياء .

(٢) وكتاب الأوسط . جعله إجمال ما بسطه.

ثم رأى اختصار ما وسطه فى كتاب سماه :

(٣) « مروج الذهب ومعادن الجوهر فى تحف الأشراف والملوك وأهل الدرايات » . قال ابن خلدون فى وصفه : « شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده فى عصر الثلاثين والثلثمائة غربا وشرقا ، وذكر نحلهم وعوائدهم ، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول ، وفرق شعوب العرب والعجم ؛ فصار إماما للمؤرخين يرجعون إليه ، وأصلا يعولون فى تحقيق الكثير من أخبارهم عليه» . ومع هذا فقد تناوله ابن خلدون بالنقد ، وذكر له شيئا من الأغلاط التاريخية . وكتاب مروج الذهب ، يعتبر من أجل المصنفات العربية.

وهو بلا شك موسوعة فيها معدن من المعلومات: التاريخية والجغرافية والعمرانية الخاصة بالشرق فى القرن التاسع للميلاد ؛ بل هو تاريخ عام مشتمل على شىء قيم فى وصف جميع الممالك المعروفة فى أقسام الدنيا الثلاثة ؛ وبخاصة ما يتعلق بافريقية والهند والسند وآسيا الوسطى . طبع هذا الكتاب بمصر ، وطبع أيضا فى ثمانية مجلدات فى باريس مترجما إلى الفرنسية ؛ وباشر المجمع الشرقى طباعته سنة ١٨٦١م وأنجزها سنة ١٧٨٣م . أما كتابه الأول « أخبار الزمان » ؛ فلم يصل إلينا . وقيل إنه عثر على نسخة منه فى مسكن السلطان محمد الثانى « الفاتح » فى استامبول . كما أن كتابه الأوسط لم يوقف له على خبر ، وهو ينيف مع أخبار الزمان على عشرين مجلدا .

(٤) « كتاب التنبيه والاشراف » فى التاريخ . وقد أودع المسعودى فى كتبه هذه ما شاهده ورآه بعينى رأسه فى أسفاره ؛ وما رواه عن الثقات . وذكر فيها تآليف كانت منتشرة شائعة فى أيامه ، ثم فقدت فلا نعرف لها الآن آثارا : منها كتاب الحكيم الكندى المسمى « رسم المعمور من الأرض » .

نبذ من كتاباته :—

سطر المسعودى أخبار رومة [1] ورومليس ، ونقلها عنه ابن

---

(١) ومما تجب الاشارة إليه ؛ أن مؤرخى العرب لم يتعرضوا لذكر بلاد الافرنج أو وصفها ؛ حتى إن سائر مدن إيطاليا وأوروبا لا تعثر لها على ذكر مع كثرتها وشهرتها فى ذلك الزمان . ويجب أن يستثنى من ذلك مدينة

الأثير . فيقول المسعودى : «أول من يعدمن ملك فى رومية ، غابوس قيصر . وقد كان ملك فيها قبله ملوك : أولهم روملس وأرمانوس المعروفان بابنى الذئبة » . ويشير المسعودى هنا إلى حكاية كانت شائعة عند القدماء ، وهى أنه لما ولد روملس وأخوه ريمس ، أضمر جدهما أن يهلكهما خوفا منهما على نفسه ومملكته ، فأمر بوضعهما فى تابوت وإغراقهما فى نهر ، وكان إذ ذاك فيضان . فلما رجع النهر إلى مجراه رسا التابوت تحت شجرة ، فسمع راع هناك صراخا ، فأسرع إلى الناحية التى منها يصدر استهلال الطفلين ، فرأى أمرا عجيبا مدهشا ، وهو أن ذئبة ترضعهما ، فاتخذهما ابنين له ، ورباهما . ولهذا السبب صارت الذئبة والطفلان شعار رومية ، وهذا الشعار شائع فى أنحاء إيطاليا . وقد رأينا تمثالا له فى مدخل ميناء جزيرة رودس التابعة لايطاليا من سنة ١٩١٢ م

قال فى وصف الأرض : « قسم الحكماء الأرض إلى جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، وقسموا ذلك إلى قسمين : مسكون وغير مسكون ، وعامر وغير عامر . وذكروا أن الأرض مستديرة ، ومركزها فى وسط الفلك ، والهواء محيط بها من كل الجهات . . . إلى أن قال : والأفلاك مستديرة محيطة بالعالم ، وهى تدور على مركز الأرض

واحدة ، هى مدينة رومة ، فقد وضعها جماعة من الأئمة : كابن خرداذبة ، وابن الفقيه الهمذانى ، والمسعودى . وذكروا عنها أحاديث عجيبة ، وأطال ياقوت الحمدى فى الكلام عليها .

والأرض فى وسطها مثل النقطة فى وسط الدائرة . وهى تسمة أفلاك، فأقربها من الأرض فلك القمر ، وفوق ذلك عطارد ، وفوق ذلك فلك الزهرة، ثم فلك الشمس متوسطة بين الأفلاك السبعة ، وفوقها فلك المريخ ، وفوقه فلك المشترى ، وفوق ذلك فلك زحل، وفى كل فلك من هذه الأفلاك السبعة كوكب واحد فقط ، وفوق ذلك زحل الفلك الثامن ، والفلك التاسع ، وهو أرفع وأعظم جسما ، وهو الفلك الأعظم ، محيط بالأفلاك التى دونه مما سميناه ، ودورته من المشرق إلى المغرب دورة واحدة فى كل يوم » .

وقال فى المد والجزر : « والمد مضى الماء فى فيحته[1] وسيحته[2] وسنن جريته . والجزر رجوع الماء على ضد سنن مضيه ، وانكشاف ما مضى عليه فى هيجه . . . إلى أن قال وقد تنازع الناس فى علة المد والجزر : فمنهم من ذهب إلى أن ذلك من القمر مجانس للماء وهو يسخنه فينبسط . وشبهوا ذلك بالنار إذا سخنت ما فى القدر ، وأن الماء يكون فيها على قدر النصف أو الثلثين، وكلما انبسط فى القدر ارتفع وتدافع ، حتى يفور ، فيتضاعف عن كميته فى الحس، وينقص فى الوزن،

---

(١) يقال فاح المسك فوحا وفيحا إذا انتشرت رائحته . . . وبحر أفيح وفياح ، بين الفيح واسع . والفيحاء الواسعة من الدور . فالمعنى فى انتشاره واتساعه .

(٢) ساح الماء يسيح سيحا ، جرى على وجه الأرض . . . والسيح الماء الجارى الظاهر . . . وأساح نهرا أجراه . والمعنى فى جريانه وارتفاعه.

لأن من شرط الحرارة أن تبسط الأجسام ، ومن شرط البرودة أن تضمها . وذلك أن قعور البحار تحمى ؛ فيتولد فى أرضهـــا عذوبة وتستحيل وتحمى كما فى البلاليع والآبار ؛ فاذا حمى ذلك الماء انبسط وزاد ، وإذا زاد ارتفع فدفع كل جزء منه فطفا على سطحه وبان عن قعره . وإن القمر إذا امتلأ حمى الجو حموا شديدا ، فظهرت زيادة الماء وسمى ذلك المد الشهرى .

وقالت طائفة أخرى : إن علة المد والجزر فى الأبحر ، تتولد من الأبخرة التي تتولد من بطن الأرض ؛ فانها لا تزال تتولد حتي تكثف وتكثر ، فتدفع حينئذ ماء هذا البحر لكثافتها ، فلا تزال كذلك حتي تنقص موادها من أسفل ؛ فاذا انقطعت موادها تراجع الماء حينئذ إلى قعر البحر » .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن ما كتبه المسعودى فى الطبيعيات نقله عن اليونان الأقدمين ، وقد أصبح الآن من خرافات القدامى التى عفت .

ومن كلام المسعودى فى الخليقة: «إن أول ما خلق الله عزوجل ، الماء . وكان عرشه عليه ؛ فلما أراد أن يخلق الخلق ، أخرج من الماء دخانا ، فارتفع الدخان فوق الماء فسماه سماء ، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة . ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يوم الأحد والاثنين . وخلق الأرض على حوت ، والحوت فى الماء ، والماء على الصفا ، والصفا على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة على الريح » .

وإنك لتلمح فى هذا الرأى تأثير الفلسفة اليونانية القديمة مما قدمنا لك طرقا منها، وكذا الاسرائيليات التى تأثر بها العصر؛ كما تلحظ أيضا أن الجزء الأول من نظرية الخليقة هذه، ينطبق إلى مدى بعيد على نظرية « لابلاس » العالم الرياضى الفرنسى: الذى فرض أن العالم خلق من سديم (دخان) برد تدريجا بسبب الاشعاع، ثم تكاثفت أجزاؤه نحو المركز. (وقد شاعت نظرية لبلاس هذه سنة ١٦٩٦ م).

وإذا لم يكن للمسعودى فضل فيما كتبه فى الفلكيات والطبيعيات إذ أن أغلبه منقول عن اليونان كبطليموس ومن أتى بعده — فان فضله واضح فى وصفه: اقاليم الأرض، وأنهارها، وجبالها، وسكانها وممالكها، وملوكها وسيرهم وأحوالهم. ومما تجب الاشارة إليه أن المسعودى عقد فصلا ممتعا فى وصف مصر ونيلها وعجائبها وأخبار ملوكها، توخى فيه الدقة ما استطاع. وقد أخذ عنه ابن الأثير كثيرا من أخباره، فلا عجب إذا سماه ابن خلدون إمام المؤرخين.

الشريف الادريسى

هو أبو عبد الله محمد بن محمد الادريسى، المعروف بالشريف الادريسى. وهو كريم المحتد، من سلالة إدريس بن عبد الله (١).

---

(١) فر إدريس بن عبد الله بن الحسن بن على — فى أواخر حكم موسى الهادى — إلى بلاد المغرب، على أثر الثورة التى قام بها الحسين بن على ابن الحسن المثلث سنة ١٦٩ هـ، والتى انتهت بقتل الأخير فى موقعة « فخ »

والأدارسة العلويون هم أصحاب المغرب الأقصى ، الذين ملكوا إفريقية الشمالية الغربية من سنة (١٧٢ — ٣٧٥ هـ ، ٧٨٨ — ٩٩٠ م) .

ولد الشريف الادريسى بمدينة « سبتة » تجاه جبل طارق سنة (٤٨١ هـ — ١٠٨٩ م) . ولما شب وترعرع ، تنقل فى ربوع الأندلس ، ودرس فى جامعة « قرطبة » ، وكانت من أعظم جامعات العالم وقتئذ يؤمها الأوروبيون من نصارى ويهود ، كما يؤمها المسلمون .

ولما انتهى من دراسته ، جاب إفريقية الشمالية وآسيا الصغرى ، وامتلأ علما وحكمة ، وذاع صيته وفضله ، فدعاه الملك « روجر الثانى »(١) ملك صقلية وجنوب إيطاليا ، فابى طلبه ، وألف كتابه القيم « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . والسبب الذي من أجله ألف هذا الكتاب ، ما حكاه الادريسى نفسه : إن الملك روجر الثانى ملك

الشهيرة . وقد استطاع إدريس أن يصل إلى بلاد المغرب بمساعدة واضح ، عامل البريد على مصر . ونزل بمدينة « وليلى » سنة ١٧٢ هـ ونشر دعوته وبايعه الناس . واحتال الرشيد على قتله ، وأرسل إليه من دس له السم . وقد بايع أنصاره ابنا له يسمى « إدريس الثانى » واستمرت دولة الأدارسة رغم أنف الرشيد .

(١) من سلالة النورمنديين المتبربرين الذين أغاروا على دولة شارلمان فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادى . وسرعان ما اندمجوا فى الفرنجة ، واعتنقوا النصرانية ، واستعملوا لغة فرنسا ، وأقاموا فى المقاطعة المعروفة : « بنورماندية » . وقد نزلوا فى القرن الحادى عشر بجنوب إيطاليا

صقلية وجنوب إيطاليا. وبعد أن استقرت له السلطة، وأطاعه الشعب أراد أن يحقق تخوم مملكته وجبالها وبحارها ومسالكها. ثم زيادة على ذلك أراد أن يعرف أحوال سائر البلاد؛ فجمع كتب علماء اليونان واللاتين، وسأل الأدباء والألباء، ولم يأل جهدا فى تحصيل هذه الأخبار مدة خمس عشرة سنة. وبعد أن رسم على صفحة مسافة البلاد، أمر أن تفرغ من الفضة الخالصة[1] دائرة عظيمة الجرم، ثم أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة؛ ببلادها وخلجانها وأنهارها، وما بين كل بلد من الطرق المسلوكة والمسافات المحدودة. ثم أمر الشريف الادريسى أن يؤلف كتابا فى شرح صور هذه الدائرة، ويصف فيه أخبار البلاد كلها وأحوال سكانهـــا؛ فامتثل الادريسى أمره، وصنف كتاب « نزهة المشتاق » اهـ.

هذا، وقد استعان الشريف الادريسى فى تأليف هذا الكتاب بمصنفات من تقدمه، وجعل له تسعة وستين رسما نقلها عن الكرة المنوه عنها؛ كما استعان بالرواد الذين بعثهم إلى الأقطار المختلفة ليجوبوها

بقيادة زعيمهم « روبرت جسكار » (R. Guiscard)، وانتزعوا الحكم من الدولة الرومانية الشرقية. ثم عبروا إلى صقلية سنة ١٠٦٠م، وطردوا العرب منها، وأقاموا مملكة عظم شأنها أيام ملكها « روجر الثانى ». والمعروف عن هذا الملك أنه كان يحب الشرق والشرقيين، حتى إن بلاطه كان مطبوعا بطابع شرقى جلى.

(١) وزنها أربعمائة رطل رومى، كل رطل اثنا عشر ومئة درهم.

ويحملوا إليه أوصافها وقياس أطوالها وعروضها . ولم يتم تأليف هـذا الـكتاب إلا سنة ١١٥٤ م .

قيمة هذا الـكتاب فى عالم الجغرافيا :—

يعتبر كـتاب نزهة المشتاق أوسع جغرافية ألفت إلى ذلك الحين . وقد أودعه مؤلفه من جغرافية المغرب وأسماء المدن المحققة وأخبارها الصحيحة — مالا يحصى عدده، على حين أن ما ذكره آل الطبقة الأولى من جغرافيي الاسلام من ذلك ، يسير ولا يخلو من الغلطات . وقد أفاض الادريسى فى وصف صقلية ، وذكر مدينة مسينا ، وقال إنها من أجل البلاد وأكثرها عمارة، ولم تزل مسينا كما ذكرها الادريسى إلى أن خربتها الزلازل فى أول القرن الحالى . وكان اهتمام العالم بهـذا الـكتاب عظيما جدا لدرجة أن عنيت كل أمة بما كتبه الادريسي عنها، ولذا ترجم إلى اللاتينية سنة ١٦٩٤ م ، ترجمه إليها عالمان مارونيان هما : جبرائيل الصهيونى الأهدنى المتوفى سنة ١٦٤٨ م ، والقس يوحنا الحصرونى . وهو أول كتاب فى هذا الفن تداوله الافرنج . وطبع منه القسم المختص بأسبانيا مع ترجمتـه الأسبـانية ، فى « مدريد » سنة ١٧٩٩ م ، كما طبع منه وصف الشام وفلسطين فى « ليبسك » بألمانيا سنة ١٨٢٨ م . وطبع جانب منه فى « ليدن » بهولنـدة سنة ١٨٦٤ م بعنوان « المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » . ولم يطبع هـذا الـكتاب كله ، إلا أنه يوجـد منـه نسخ خطية كامـــلة فى بعض دور الـكتب الأوروبية. وفى مصر واحدة منها منقولة بالتصوير

الشمسى عن نسخة بالقسطنطينية . ووجد فى بعض المصادر أن هذا الكتاب طبع بالعربية فى رومة سنة ١٥٩٢ م ، وترجم إلى اللاتينية كما تقدم ، باسم « الجغرافية النوبية » ؛ لأن الأدريسى من ذرية قوم ملكوا بلاد النوبة ومصر .

هذا ، وللادريسى كتاب آخر أسماه «أنس المهج وروض الفرج». لخص فيه ما أورده فى كتابه نزهة المشتاق من وصف صقلية ، وزاد عليه ما يختص بسائر بقاع إيطاليا . ولا يوجد من هذا الكتاب على ما يعلم إلا نسخة واحدة فى القسطنطينية . وقد سمى كتاب نزهة المشتاق « بالروجارى » أيضا نسبة لروجار الثانى واعترافا بفضله .

وهذان الكتابان هما مدار علم العرب بمعرفة الغرب ووصفه ؛ ولذا يعتبر الادريسى نقطة التماس بين جغرافية الاسلام وجغرافية الافرنج ؛ وذلك لأن مؤلفى الطبقة الأولى من الأقدمين إلى الشريف الأدريسى ومنهم ياقوت الحموى — لم يحصلوا من العلم بأوروبا وإيطاليا إلا القليل ؛ ولم يذكروا إلا أسماء بعض المدن أو بعض الأمم ؛ دون تفصيل أخبارها وشرح أحوالها ؛ ما عدا أخبار مدينة رومية كما مر بك ذلك فى المسعودى. وقد جاء ما ذكروه عن أمم أوروبا مشوها مغلوطا ؛ لجهلهم بلغات تلك الشعوب ، وعدم تيسر امتزاجهم بهم ؛ وذلك كقولهم إن الافرنج لا يغتسلون فى العام إلا مرة أو مرتين ، وما يشبه ذلك (١)

---

(١) من أراد أن يعلل لجهل علماء الطبقة الأولى من العرب بأكثر أمم الغرب ، مع أن الأندلس دار السلام واقعة فى الغرب ، وأن المسلمين

أما علماء الطبقة الثانية وعلى رأسهم الشريف الأدريسى ؛ فقد سدوا هذا النقص بامتزاجهم بالأوروبيين ومعرفتهم بلغاتهم . وقد اكتفى كثير من المؤرخين والجغرافيين من العرب بأن نقلوا عن الادريسى عند الكلام على الأوروبيين حرفا بحرف ، كابن سعيد المغربى ، وأبى الفداء صاحب كتاب « المختصر فى أخبار البشر » وهو أول كتاب إسلامى فى أخبار العرب وخلفائهم تداوله حكماء أوروبا ، وشهاب الدين العمري صاحب كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ، وابن الوردى ، وغيرهم .

جاء فى كتاب نزهة المشتاق عن وصف مصر ما يأتى : « ومصر بالجملة عامرة بالناس ، نافقة بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس ، وفى أهلها رفاهة وظرف شامل وحلاوة ، ولها فى جميع جوانبها بساتين وجنات ونخل وقصب سكر ؛ وكل ذلك يسقى بماء النيل . ومزارعها ممتدة من أسوان إلى حد الاسكندرية . ويقيم الماء

كانوا يختلفون إليها من المشرق ويخرجون منها — أجبناه بأن أولئك الذين خرجوا إليها كانوا يسلكون من مصر إلى برقة ، ثم إلى طرابلس ، ثم إلى قيروان وتونس . ثم يسيرون مدة عشرة أيام محاذين للساحل غير متوغلين ، حتى يحاذوا الأندلس .

هذا هو طريقهم المسلوك ، وهو بعيد كما ترى عن أوروبا وبلاد الفرنجة ، ولذا تراهم إذا ما تعرضوا للكلام على الأوروبيين ، تخبطوا فى بيداء التخمين والخرافة .

فى أرضهم منذ ابتداء الحر إلى الخريف ، ثم ينضب فيزرع عليه ، ثم لا يسقى بعد ذلك ما زرع عليه ولا يحتاج إلى سقى ألبتة. وأرض مصر لا تمطر ولا تثلج ألبتة . وليس بأرض مصر مدينة يجرى فيها الماء من غير حاجة إلا الفيوم . وأكثر جرى النيل إلى جهة الشمال ، وعرض العمارة عليه فى حد أسوان ما بين نصف يوم إلى يوم ؛ إلى أن ينتهى إلى الفسطاط ، ثم تعرض العمارة وتتسع ؛ فيكون عرضها من الاسكندرية إلى الجرف الذى يتصل ببحر القلزم نحو ثمانية أيام . وليس فى أرض مصر مما يحوز ضفتى النيل شيء قفر ؛ وإنما هو كله معمور بالبساتين والأشجار والمدن والقرى والناس والأسواق والبيع والشراء . وبين طرفى النيل — فيما ثبت من الكتب — أربعة وثلاثون وخمسمائة وخمسة آلاف ميل » .

وهذا الوصف كما ترى غاية فى الدقة . وهو يعتبر نموذجا للبلاد التى وصفها فى كتابه الخالد .

هذا ، والمصور (شكل ٨) من وضع الادريسى ، وفيه رسم النيل وما يليه غربا إلى المحيط . والغرض منه بيان ما جاء فى وصف هذا النهر بنزهة المشتاق وهو وصف غريب ؛ إذ جعل نيل السودان (ولعله النيجر) يخرج من منابع النيل ، ويجرى غربا حيث يصب فى المحيط الغربى أو بحر الظلمات على مقربة من جزائر الخالدات . قال الادريسى : « وفى هذا الجزء (الرابع من الاقليم الأول) افتراق النيلين ، أعنى نيل مصر الذى يشق أرضها ، وجريه من الجنوب إلى الشمال ، وأكثر مدن مصر على ضفتيه معا وفى جزائره ؛ والقسم الثانى من النيل يمر

صفة النيل
كما رسمه الأدريسي في نزهة المشتاق
جبل القمر ومنابع النيل
بحر الشام
طرابلس
القيروان
فزان
كوكو
بلاد السودان
تكرور
لمطة
مصر
النيه
الفيوم
سوان
جبل الجنادل
بلاق
دنقله
خط الاستواء

من جهة المشرق إلى أقصي المغرب ، وعلى هذا القسم من النيل جميع بلاد السودان أو أكثرها . وهذان القسمان مخرجهما من جبل القمر الذى أوله فوق خط الاستواء بست عشرة درجة ؛ وذلك أن مبدأ النيل من هذا الجبل من عشر عيون : فأما الخمسة الأنهار منها فانها تصب وتجتمع فى بطيحة كبيرة ، والخمسة الأنهار الأخر تنزل أيضا من الجبل إلى بطيحة أخرى كبيرة . ويخرج من كل واحدة من هاتين البطيحتين ثلاثة أنهار ، تجتمع إلى أن تصب فى بطيحة كبيرة جدا ؛ ألى أن قال : « وهذه البحيرة المذكورة فوق خط الاستواء مماسة له ؛ وفى أسفل هذه البحيرة التى تجتمع بها الأنهار جبل معترض يشق أكثر البحيرة ، ويمر منها إلى جهة الشمال مغربا ، فيخرج معه ذراع واحد من النيل فيمر فى جهة المغرب ، وهو نيل بلاد السودان الذى عليه أكثر بلادها . ويخرج منها مع شق الجبل الشرقى الذراع الثانى ، فيمر أيضا إلى جهة الشمال ، فيشق بلاد النوبة وبلاد أرض مصر ، وينقسم فى أسفل أرض مصر أربعة أقسام ؛ فثلاثة أقسام منها تنصب فى البحر الشامى ، وقسم واحد ينصب فى البحيرة الملحة التي تنتهى قرب الاسكندرية . وبين هذه البحيرة وبين الاسكندرية ستة أميال ، وهى لا تتصل بالبحر ؛ بل هى من فيض النيـــــل » انتهى .

وإن تعجب فعجب أن ترى فى الصور وفى العبارات شيئا يسمى نيل السودان ، يخرج من حيث يخرج النيل ، ويجرى غربا إلى بحر الظلمات ؛ وأن تحدثك الجغرافية القديمة بوجود نهر يشق الصحراء

الكبرى ، وأن تسمع أن بعض الرحالين من أهل القرون الوسطى كابن بطوطة : يذكر هذا النهر ويصفه هو والبلاد التى يرويها ، وما فيه من حيتان ودواب ، وما على ضفتيه من مدن وقرى ؛ ثم لا تراه الآن على المصورات الجغرافية ! فهل تبدلت الأرض غير الأرض ؟ أم شاخ هذا النهر الطويل العريض وهدم ثم قبر وعفا أثره حتى صار نسيا منسيا ؟

إن الناظر فى المصورات القديمة المأثورة عن هيرودوت وبطليموس — وقد مرت بك — يرى :

(١) أن الأول منهما يفرض أن النيل ينبع من جبال أطلس ، ثم يشرق إلى مدينة مروى ، ثم يتجه إلى مصر شمالا .

(٢) وأن الثانى يرسم النيل مستقلا ينبع من جبل القمر عند خط الاستواء ، ثم يرسم قبالة مروى قطعا من أنهارها ؛ يسمى أحدها جير ، والثانى نجير ، والثالث دردوس وهو يصب فى المحيط الأطلسى ؛ وتكاد تكون على استقامة واحدة . فهل محت عوامل التعرية خطوط تقسيم المياه بين هذه الأنهار ، فصارت نهرا واحدا يجرى إلى الغرب على خلاف نيل هيرودوت ، وهو الذى وصفه الادريسى ومن نسج على منواله ؟ أم ماذا ؟ وإذا كان هو هو ، فأين هذا النهر الآن ؟ أهو النيجر ؟ هذا ما لا نستطيع أن نؤكده .

هذا ، ويلاحظ فى (خريطة) الادريسى أن الشمال فيها إلى أسفل والجنوب إلى أعلى ؛ على خلاف (خرائط) اليوم .

ابن بطوطة

(٧٠٣ م — ٧٧٩ هـ)

مولده ونشأته :—

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى [١] الطنجى . ولد بطنجة فى ١٤ من رجب سنة ٧٠٣ هـ ٢٤ من نوفمبر سنة ١٣٠٤ م . وهو ينتمى إلى أسرة عريقة فى الاشتغال بالعلوم السرعية (أى الدينية) فهو من أبناء الطبقة الدينية العليا ؛ على حد التعبير الأوروبى . ولا يعرف عن حياة ابن بطوطة الأولى شىء كثير ؛ إلا أن الراجح أن الوسط الدينى الذى نشأ فيه قد أرهف ذكاءه ، وبعثه على التفقه فى الدين والشرع . يضاف إلى ذلك — كما يفهم من كتابه — أنه تعلم الأدب ، وروى الشعر ونظمه ، ودرس اللغة الفارسية . ومما يجدر ذكره أن أسرة ابن بطوطة أنجبت عدة أفراد خدموا الشرع والقضاء الاسلامى . وقد ذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان أن ابن بطوطة كان له ابن عم قاضيا بمدينة « أندة » ، بين إشبيلية ومالقة بالأندلس الاسلامية ؛ فلا عجب إذا عرف ابن بطوطة بالتقوى والورع ، وعنى بكل ما هو دينى أو شرعى . وقصد فى رحلاته إلى ممالك المسلمين للحج ؛ ولاستطلاع أخبارها والوقوف على أحوالها .

---

(١) نسبة إلى لواته ، وهى قبائل كانت تسكن بلاد برقة قرب الحدود المصرية الغربية ، فابن بطوطة إذن لواتى أولا وطنجى ثانيا .

رحلاته :—

قال ابن بطوطة : « كان خروجى من طنجة مسقط رأسى ، فى يوم الخميس الثانى من شهر رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة ؛ معتمدا حج بيت الله الحرام (١) وزيارة قبر الرسول عليه السلام ؛ منفردا عن رفيق آنس بصحبته ، وركب أكون فى جملته ؛ لباعث فى النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم ؛ فحزمت أمرى على هجر الأحباب من النساء والذكور ، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور . وكان والداى بقيد الحياة ؛ فتحملت لبعدهما وشبا ، ولقيت كما لقيا من الفراق وصبا . وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة . . . »

ثم ذكر البلاد التى وصل إليها فى أراضى البربر ؛ إلى أن وصل إلى مدينة الاسكندرية ، وفى الاسكندرية زار قاضيها ، ونزل ضيفا على على أحد علمائها المسمى « برهان الدين » الذى توسم فيه شغفا بجوب الأمصار وحبا للتحول ، وأوصاه إذا ذهب إلى الهند أو السند أو الصين — أن يزور أفرادا سماهم له. ويقول الأستاذ زيادة: «ويظهر أن أطراف هذا الحديث المبروك حركت فى قلب الشاب ابن بطوطة عزما على زيارة جميع البلاد الاسلامية ، وأن هذا العزم قوى فى نفسه بعد تجاربه أثناء هذا السفر إلى مكة : ذلك أنه زار فى طريقه إلى

---

(١) يظهر أنه استمال قلوب من كان معه بعلمه وتقواه ، فعينوه قاضيا على القافلة قبيل مسيرهم من تونس .

القاهرة أحد الأولياء الصالحين ؛ وكان مقيما بقرية قبالة بلدة فوه على النيل ؛ فرأى فى منامه — وهو عنده — أنه زار مكة واليمن والهند على جناحى طائر أخضر . وقد قص رحالة المستقبل رؤياه على الشيخ ففسرها بأنه سيزور مكة واليمن والعراق وبلاد الترك والهند » . هذا ولا يزال فى الاسكندرية طريق يسمى باسم ابن بطوطة .

وصوله إلى الشام :—

بعد أن ترك الاسكندرية وطاف أرض الوجه البحرى ووصل إلى مصر (يقصد القاهرة) « أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد » ، ثم يمم نواحى الصعيد حتى إدفو ، وعبر النيل إلى العطوانى ، وركب الجمال إلى مزار أبى الحسن الشاذلى ، ومنها سار بالبر خمسة عشر يوما إلى عيذاب المصرية ؛ إلا أنه لم يستطع الرحيل إلى مكة عن طريق عيذاب على البحر الأحمر ؛ فعاد إلى القاهرة ، ومنها قصد الشام بطريق الصالحية إلى القدس . وحدث أنه وصل الشام قبل قيام ركب الحج بشهور ؛ فأتيحت له فرصة زيارة الشام جميعها حتى حدود آسيا الصغرى ، وذاق حلاوة السفر والتجول لغير غرض سوى الاستطلاع والاستمتاع .

« وليس بغريب إذن أن يغرم ابن بطوطة بالتجوال والترحال ؛ بعد ما سمع من عالم الاسكندرية وشيخ فوه ما سمع ، وبعد ما رأى من أرض الشام ما رأى ، وأن يزيد هذا الغرام كلما زاد هو فى أسفاره ؛ لا سيما أن مركزه الديني سهل عليه كثيرا من عثرات التنقل ووعثاء

السفر ؛ لأنه كان موضع التجلة والاحترام فى معظم الأمكنة التى حل بها »

وصوله إلى مكة :—

بعد أن تنقل فى الشام من بلد إلى بلد ؛ عاد إلى دمشق ، وخرج منها مع الركب الشامى إلى الحج ، فوصل إلى المدينة المنورة ، ومنها إلى مكة المكرمة وادى الفريضة .

طوافه فى فارس والجزيرة :—

ثم سار إلى العراق مع أمير ركب العراق ؛ فمر على النجف وبغداد ، ثم انحدر إلى البقرة والأبلة ، وركب إلى عبادان ، وطاف فى بلاد فارس ، ثم عاد منها إلى الكوفة وبغداد ، وتنقل فى أرض الجزيرة حتى وصل إلى نصيبين وماردين ، ثم عاد إلى بغداد فوجد الركب إلى الحجاز ، وسافر معه إلى مكة وأقام بها مجاورا تلك السنة .

خروجه إلى اليمن وإلى سواحل إفريقية الشرقية :—

سافر من مكة الى جدة ، ثم ركب الى سواكن ، ومنها إلى مرسى الأبواب باليمن ، ثم رحل إلى صنعاء ثم إلى عدن ، وأبحر إلى زيلع ومنها إلى كلوا بسواحل إفريقية الشرقية ، وعاد منها إلى ظفار ، ثم أبحر إلى هرمز والقطيف ومنها إلى مكة ، وقضى فريضة الحج للمرة الثالثة .

زيارته بلغار :—

عاد إلى مصر من طريق جدة وعيذاب ، ثم قصد الشام وطاف

فى أنحائه ، ثم أوغل فى بلاد الروم ومر على قونية وسيواس وصنوب، ومنها أبحر إلى القرم وآزاق واتصل بالسلطان محمد أوز بك صاحب تلك البلاد ، وبعد أن تجول فيها ركب البحر قاصدا القرم وساح فى بلاد القفجق (قبجاق) وهى روسيا الجنوبية وكانت تحت سلطان « إيد » من سلالة جنكيزخان عظيم المغول . ومن قفجق هذه رحل إلى بلغار ، قاعدة بلاد البلغار القديمة التي ذكرها ابن فضلان فى رحلته، وآثارها قائمة إلى الآن على ضفة نهر « الأثل »، وهى واقعة على خط عرض (٥٤ °) ، وقد شهد فيها ابن بطوطة قصر ليالى الصيف . و بلغ ابن بطوطة بزيارته بلغـــار آخر حد من المعمورة فى الشمال عرفه العرب، « وماوراءه أرض الظلمة، وبينها وبين بلغار مسيرة أربعين يوما، ولكنه أضرب عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى » . قال ابن بطوطة فى هذا الموضع : «والسفر إليها لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار ؛ فان تلك المفازة فيها الجليد ، فلا يثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة بها . والكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها فى الجليد . ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار » . وقد ذكر ابن بطوطة شيئا عن أشكال الاستبدال فى أرض الظلمة ، وهى عبارة عن مقايضة أو معاوضة يجريها التجار مع شعوب تلك البلاد ، ويأخذون بدلا من متاعهم السمور والسنجاب والقاقم. ولا شك أن هذا الوصف البارع ينطبق تمام الانطباق على وصف المتأخرين من الجغرافيين الذين يحدثوننا : عن « التندرا » (صحراء روسيا الجليدية) ، وما فيها

من ذوات الفراء ، وغزال الرنة الذى يستعمل لجر العجلات التى تنزلق على الجليد .

رحلته إلى الهند وإقامته فيها :—

سار بعد ذلك إلى القسطنطينية فى عهد الأمبراطور « أندرونيكس الثالث » فى حاشية الأميرة اليونانية زوجة السلطان محمد أوزبك ، وأقام بها مدة يشاهد عظمتها ؛ ثم عاد إلى القفجق ، ومن الفلجا سار إلى خوارزم وبخارى وبلخ وهراة ؛ ثم سار مغربا إلى طوس ومشهد وسرخس بجهات خراسان ، ثم عاد فاخترق جبال « هندوكوش » إلى « نبخ آب » وإقليم السند سنة ٧٣٤ م فمر على ملتان ، وأوغل حتى وصل إلى دلهى حاضرة السلطنة الاسلامية بالهند ؛ وهنالك غمره سلطان الهند بالعطايا ، وأجزل له الصلات ، وخلع عليه ؛ وأخيرا جعله قاضى دار الملك دهلى (دلهى) ، وجعل راتبه مئتين وألف دينار فى السنة ومثلها من دخل بعض البقاع ؛ وقال للسلطان : « يا مولانا إنا على مذهب مالك ؛ وهؤلاء حنفية ، وأنا لا أعرف اللسان » ؛ فعين له نائبين يشاورانه ويعاونانه ، وبالغ فى إكرامه ؛ فلا عجب أن وصفه ابن بطوطة بما لا يكاد يصدق .

خروجه إلى الصين :—

وبعد أن قام فى الهند سنتين رغب فى الرحلة ؛ فأمره سلطان الهند بالخروج إلى الصين ، وقال : « إنما بعثت إليك لتتوجه عنى رسولا إلى ملك الصين ؛ فانى أعلم حبك فى الأسفار والجولان » .

فصدع بالأمر سنة ٧٤٣ هـ ، ووصل إلى كنبايه ، ثم أبحر على ساحل بليار إلى قاليقوط ، ثم إلى جزائر ملديف[١] ، ثم إلى سرنديب . ورجع إلى قاليقوط ، ومنها أبحر إلى أرض بنغالة ، ومنها إلى أرض جاوة ، ومن هذه إلى زيتون وكانتون بالصين . وليس من المحقق أنه تجاوز هذين البلدين ، على أنه يرجح أنه وصل إلى خان بالق بكين حاضرة ملك الصين .

رجوعه إلى بلاد العرب ثم إلى بلاده :—

عاد من حيث أتى ، فوصل الى قاليقوط ثم إلى ظفار سنة ٧٤٨ هـ ثم إلى هرمز ، وأوغل فى بلاد فارس ، ثم عاد إلى البصرة والكوفة وبغداد ، ثم الى دمشق بعد أن غاب عنها عشرين سنة ، وطاف بمدن الشام ثم عاد إلى القدس ، ومنها إلى دمياط فالقاهرة أيام الناصر حسن ابن محمد بن المنصور قلاوون ، ثم يمم الصعيد إلى عيذاب ، ثم إلى جدة ومكة وأدى فريضة الحج للمرة الرابعة .

ثم عاد فاخترق شمالى إفريقية ، ومر بتونس ، ثم إلى تلمسان ؛

---

(١) يقول المرحوم أحمد زكى باشا : إن جزائر ملديف اسمها فى الأصل « ذيبة المهل » . وقد جرى الافرنج على الاصطلاح الآتى ، وهو « مهل ذيبة » . وحرف الهاء غير منطوق عندهم ، فقالوا « مل ذيبة » . ثم انتهوا إلى « Maldives » . وجاء المترجمون فى هذه الأيام فنقلوا عنهم بغير علم ولا روية ، فقالوا « ملديف » وهو خطأ ، وأهلها لا يزالون يقولون « مهل ذيبة » .

ودخل مدينة فاس سنة ٧٥٠ هـ ووصل طنجة .

رحلته الأخيرة :—

عبر من طنجة إلى الأندلس ، وطاف بأكثر مدنها الجنوبية ، وزار غرناطة ، ثم عاد إلى جبل الفتح و« سبتة » ، وساح فى أرض المغرب الأقصى . وفى سنة ٧٥٣ هـ رحل إلى أرض السودان حتى وصل إلى مالى ، ثم عاد إلى تنبكتو ، ومنها ركب النيل (١) إلى كوكا . قال ابن بطوطة : « والنيل ينحدر منها الى كاترة ثم إلى زاغة . . . وأهل زاغة قدماء فى الاسلام ، لهم ديانة وطلب للعلم . ثم ينحدر النيل من زاغة الى تنبكتو ، ثم إلى كوكو ، ثم إلى . . . وإلى . . . ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ، ثم إلى دنقلة وهى أكبر بلادهم . . . ثم ينحدر إلى جنادل وهى آخر عمالة فى السودان ، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر » . ثم عاد الى حاضرة فاس عن طريق واحتى «غات وتوات» ، ومر بمدينة « سلجماسة » . ولما وصل فاس ، أملى أخبار رحلته على العالم محمد بن محمد بن جزى ؛ فكتبها هذا فى أسلوب أدبى تأثر فيه كثيرا بكتاب ابن جبير ، ومات ابن جزى سنة ٧٥٧ هـ ١٣٥٦ م ، بعد عمله بمدة وجيزة . ويوجد بعض هذه النسخة التي خطها ابن جزى بيده ، بباريس بالمكتبة الأهلية بها. وتوفى ابن بطوطة سنة ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م فى مراكش .

وما كتبه عن السودان جاء مفعما بالفوائد عن سكانه فى ذاك

---

(١) كان هذا متأثرا بما كتبه الشريف الادريسى مما مر بك ذكره .

العصر . وأول شيء يتنبه إليه أن سكان السودان كانوا أرقى مما صاروا إليه فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ؛ حينما دخلها الأوروبيون ، وأنهم كانوا مسلمين فى الغالب : يكرمون رجال العلم ، ويأتيهم رجال القضاء والمعلمون من المغرب الأقصى والقطر المصرى والشامى ؛ فيحلون عندهم على الرحب والسعة . وإن شأن المرأة عندهم كان رفيعا مساويا لشأن الرجل . ومما يستحق الذكر أيضا ، ما ذكره ابن بطوطة عن امتداد التجارة فى ذلك العصر بين السودان الغربى وسائر الأقطار الافريقية والشرقية .

نقد رحلته :—

قد تصدى لنقد أخباره ابن خلدون فى مقدمة تاريخية ؛ فقال : « ورد على المغرب لعهد السلطان أبى عنان ؛ من ملوك بنى مرين — رجل من مشيخة طنجة ، يعرف بابن بطوطة . كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند ، واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه ، وكان له منه مكان ، واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله ، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان ، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض ؛ وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحبه ويأتى من أحواله بما يستغربه السامعون ، مثل . . . وأمثال هذه الحكايات . فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه ، ولقيت أنا يومئذ فى بعض الأيام وزير

السلطان . . . ففاوضته فى هذا الشأن ، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل . ولما استفاض فى الناس من تكذيبه قال الوزير : « إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره ، فتكون كابن الوزير الناشىء فى السجن (وذكر قصته) . وهذا كثيرا ما يعترى الناس فى الأخبار كما يعتريهم الوسواس فى الزيارة عند قصد الاغراب . . . فليرجع الانسان إلى أصوله ، وليكن مهيمنا على نفسه وممسكا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته ؛ فما دخل فى نطاق الامكان قبله ، وما خرج عنه رفضه .

وكل هذا للتنويه بأن أخبار ابن بطوطة فى رحلته لا يوثق بها لما فيها من الأخبار التى لا يقبلها العقل .

عناية الافرنج برحلة ابن بطوطة :—

عنى الافرنج بهذه الرحلة عناية كبيرة ؛ فنقلوا بعضها إلى اللاتينية ونشروه ، ونقلها بعضهم إلى الانجليزية . وقد اهتم دفرمرى « Defrèmery » ، وكذا سانجونتى « Sanguinetti » بنشر الرحلة فى أربعة مجلدات بباريس ، وظهرت الطبعة الثالثة سنة ١٨٩٣ م وقد اقتصر بعض الافرنج على ترجمة وصف السودان أو آسيا الصغرى . وترجمت أيضا الى الألمانية ولها ترجمة تركية تسمى « تقويم وقائع ».

كل هذا يدل على ما للرحلة من الأهمية ، وما لمؤلفها من المكانة . وقد أنكر الافرنج على ابن بطوطة أمورا كثيرة ، وبخاصة ما نسبه إلى أهل إفريقية من معرفة السحر والأعمال التي تعد من المعجزات ؛

لأنها خارجة عن نطاق الاقتدار البشرى . ولا يقدح فى أخباره جملة، ما أنكره بعضهم على شىء منها . واذا صح الانكار لها فلا يصح أن ينسب اليه تعمد الكذب والفسق ، والأصح أن ينسب اليه تقرير أخبار سمع بعضها وشهد البعض الآخر ، وربما كان فيما سمع شىء من المبالغة . أما ما شهده بعينه ، فلا سبيل إلى إنكاره.

هذا وقد اعتبر بعض الباحثين كتاب ابن بطوطة صفحة من التاريخ الاجتماعى الاسلامى ، أكثر منه كتابا فى تقويم البلدان والجغرافيا .

وتسمى رحلة ابن بطوطة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار » وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ — ١٢٨٨ هـ — ١٣٢٢ هـ .

ويوجد عدا رحلة ابن بطوطة رحلات أخرى، صنعها علماء المسلمين: منها رحلة ابن جبير ، وقد طبعت فى ألمانيا . ورحلة ابن خلدون، وهى عزيزة الوجود . ورحلة ابن رشيد ، وابن الصلاح ، وأبى القاسم النجيبى ، ورحلة بدر الدين بن رضى الدين الغزى وغيرهم .

وكل هذا شاهد على مجهودات المسلمين فى تعرف أقطار الأرض وبراعتهم فى وصفها .

رجال الرحلات من غير العرب

ماركو بولو

مقدمة : ظهر فى أواسط آسيا فى القرن الثانى عشر قوم يسمون

التتر أو المغول . أصلهم قبائل من البدو الرحل ، أغاروا فى عهد جنكيزخان (١١٧٥ — ١٢٢٧ م) وأحفاده على البلاد الاسلامية ، واكتسحوا فى طريقهم العواصم الاسلامية ، وأتوا على ما كان لها من مدنية وثقافة ، ولم يتركو وراءهم من تلك البلاد سوى صحراوات جرداء وأطلال بالية . وقد اندفعوا بعد ذلك نحو الغرب ، واستولوا على معظم المدائن الروسية ، وخربوا الجزء الأعظم منها ، وخرج فريق من جيشهم وأغار على بلاد المجر ، كما أغار الفريق الآخر على بولندة ، وأشرفوا على سهول ألمانيا ، وعملوا فى البلاد سلبا ونهبا ، حتى أقاموا لأنفسهم فى زمن قبلاى خان (١٢٥٧ — ١٢٩٤ م) — دولة عريضة الأكناف تمتد من الصين حتى البحر الأسود ، ومن سوريا إلى جبال هيمالايا .

هامت قلوب المسيحيين فى أوروبا من نهوض هذه « الطغمة الفاسدة العقيدة » ، وأخذ ملوكها وباباواتها — نخص بالذكر منهم جريجوار العاشر — يرسلون الرهبان والسفراء إلى « قبلاى خان » (عظيم التتر) ، يريدون بذلك دفع أذاهم بانشاء العلاقات الودية من طريق التبشير بالنصرانية ، وكان الراهب « جنا دى بلانو كاربينى » أشهر من ذهب من هؤلاء السفراء . لم يصادف الرهبان ولا السفراء النجاح الذى كانوا يؤملون ، فكانوا يعودون إلى بلادهم ، ويروون عن سكان آسيا الوسطى والشرقية الغرائب ، مما حرك الرغبة فى نفوس أهل ذاك العصر من الأوروبيين إلى الرحلة إليهم .

فى هذا الوقت كانت مدينة جنوة والبندقية ، تتنافسان فى حمل منتجات آسيا ونفائسها إلى أوروبا[١] . كان بين التجار الذين ينقلون تلك السلع ، تاجران أخوان من أهالى البندقية : هما نقولا بولو (والد ماركو)، ومافيو بولو (عمه) . وكانت أكثر تجـــارتهما متبادلة مع القسطنطينية . اضطرتهما شئونهما التجارية إلى السفر إلى شبه جزيرة القرم ، ومنها إلى بخارى ؛ حيث اتصلا ببعض السفراء الذين أرسلهم « قبلاى خان » إلى أخيه « هولاكو » ، مؤسس دولة إيلخان فى فارس (١٢٥٦ — ١٢٦٥) ؛ فألح عليهما أولئك الرسل بالذهاب إلى الخان الأكبر ، الذى لم يكن قد رأى حتى ذلك الوقت أحدا من الأوروبيين ؛ فرحلا إلى هناك مخاطرين بعد أن أقاما فى بخارى ثلاث سنين ، ووصلا بعد سنة إلى قمبالو (خان بالق) مقر ملك قبلاى خان ؛ فرحب بهما الخاقان الأعظم ، وأقاما معه مدة حدثاه فى خلالها عن الديانة المسيحية والمدنية المسيحيـة حتى بهراه ؛ فأوفدهما إلى أوروبا برسالة إلى البابا ، يسأله فيها أن يرسل مائة مبشر لنشر الدين المسيحى فى الصين ؛ وليعلموا الناس الفنون والصناعات ؛ فرجعا ووصلا البندقية سنة ١٢٦٩ م . ولما وصلا أوروبا كانت المسيحيـة فى شدة الاضطراب ؛ للنزاع بين الملوك والبابوات ؛ فقد ظل كرسى البـــابوية شاغرا نحو سنتين ؛ لذا صمما على العودة إلى الشرق ، وصحبا معهما ماركو بولو .

ولم يكد يمضى على رحيلهما أيام حتى علما بانتخاب البابا ؛ فعـادا إلى

---

(١) أنظر الفصل الخاص بالتجارة فى القرون الوسطى .

رومة لتأدية رسالة قبلاى ؛ فأرسل معهما البابا اثنين من الرهبان لدومنيكان [١] ؛ ولكنهما لم يتحملا مشقة السفر ، فتركا آل بولو وقفلا راجعين .

خروج ماركو وحظوته عند الخان الأعظم :—

وفى سنة ١٢٧١م عم مافيو ونيقولا شطر بلاد الصين، وصحبهما ماركو وكان شابا فى السابعة عشرة من عمره ، وإليه يرجع الفضل فى وصول تلك المعلومات إلينا. وسار ثلاثتهم عن طريق فلسطين ، وحملوا معهم لوحة من الذهب وبعض شارات من الخان الأكبر ؛ مما سهل لهم طريق سفرهم . وكان قبلاى قد طلب بعض الزيت من المصباح الذى يضىء القبر المقدس فى بيت المقدس . وظلوا سائرين بثبات وشجاعة من بيت المقدس إلى أرمينية عن طريق « كيليكيا » ولما وصلوا إلى مدينة هرمز الواقعة على الخليج الفارسى (أنظر المصور شكل ٩) ـ عداوا عن طريق البحر مفضلين الذهاب شمالا عن طريق صحاري فارس ؛ مارين بكرمان وخراسان . وانتهى بهم المطاف إلى هضبة البامير (وقد سمع الناس بهذا الاسم لأول مرة من كتاب ماركو بولو) ؛ فاجتازوها إلى كاشغر ، ثم إلى بلاد الخطا

---

(١) أتباع القديس « دومنيك » . وكانوا علماء بأمور المسيحية ، مهتمين باقناع الملحدين وهداية الضالين . واعتمد عليهم البابا فى محكمة التفتيش . ويمتازون عن الفرنسيسكان بأنهم كانوا يجوبون الآفاق ، ويختلطون بصنوف الناس رجاء تخليصهم من غواية الشيطان .

بحر الهند
بلاد القبجاق (التتار)
(قبالو)
خان بالق
الصين
الهند
(جزيرة المهل (المالديف)

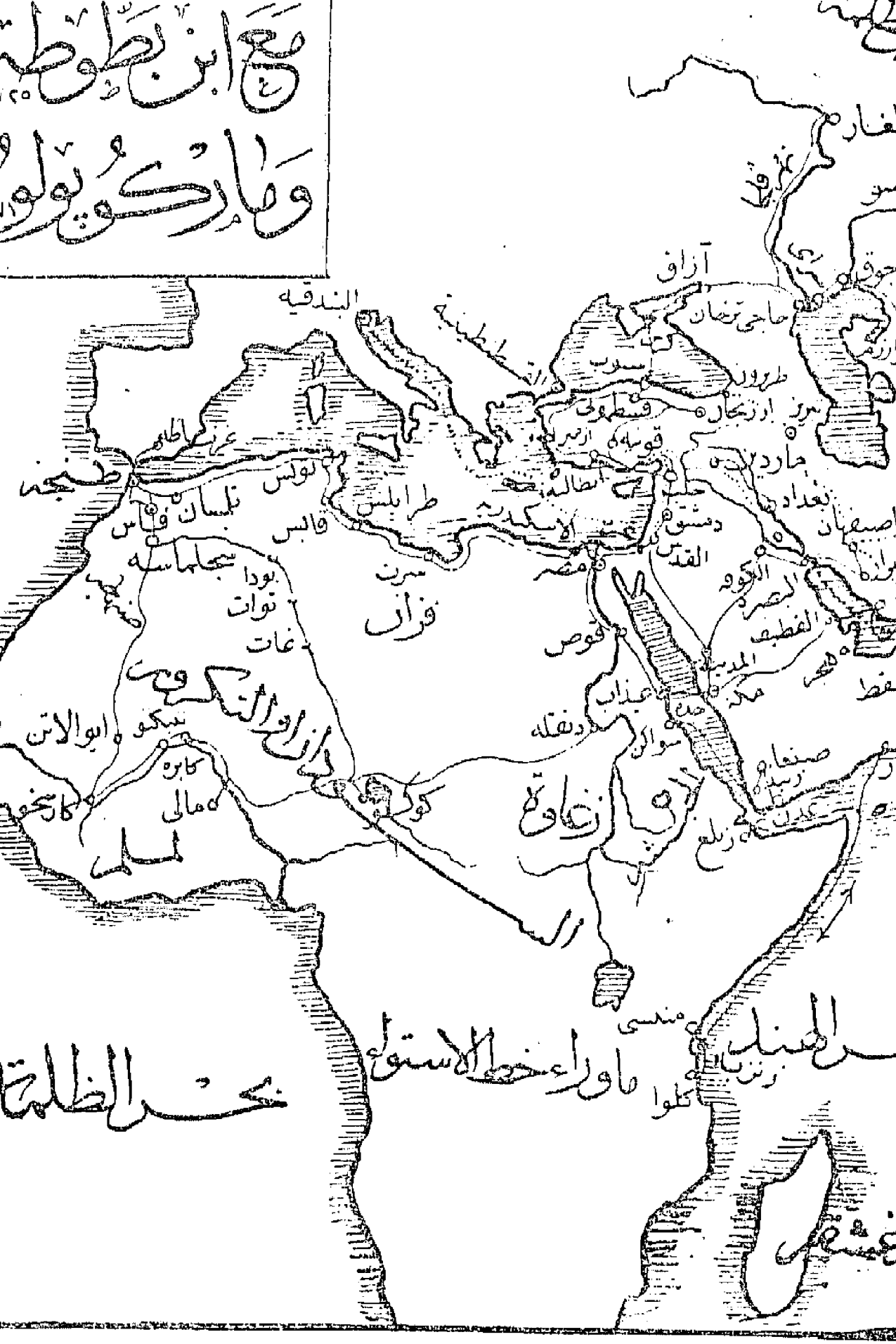
مع ابن بطوطة
وماركو بولو
البندقيه
آزاف
حاجى ترخان
سودق
قسطموني
قونيه
انطاليه
حلب
دمشق
القدس
مصر
الاسكندريه
طرابلس
قابس
سرت
فزان
غات
توات
بودا
سجلماسه
تلمسان
فاس
طنجه
تونس
الكوفه
البصره
الفطيف
المدينه
مكه
جيزان
قوص
صنعا
زبيد
عدن
ربلع
كوكو
كانو
كاشنه
مالى
كاباره
سكتو
ابوالاتن
منبسى
ما وراء خط الاستوا
بحر الظلمات

تابع (شكل ٩)

(الخيثان)، ووصلوا إلى ضواحى مدينة لوب نور، فصحراء جوبى، فالتابخوت، فشانج تو، حيث استقبلهم الخاقان فى مصيفه سنة ١٢٧٥ م — بعد أن ساروا أربع سنين — ورحب بهم، وسر كثيرا من ماركوبولو ذلك الشاب الذى تحمل وعثاء السفر ولم يثنه التعب، وكانت تبدو عليه علائم النجابة والنشاط. ومن ذلك الحين لمع نجم ماركو بولو. فطن ماركو بذكائه أثناء إقامته فى بلاط كوبلاى — إلى ولع الخان بالوقوف على أحوال الشعوب وأطوارها، وكراهيته لسفرائه من المغول الذين لم يعنوا بشىء قليل أو كثير من أحوال البلاد والأمصار التى جابوها. ومن ثم كان ماركوبولو يدون فى مذكراته أثناء رحلاته المعلومات الجذابة الطلية التى يرى أنها تدخل السرور على قلب قبلاى، فعظم ماركو فى عين الخان الأعظم، ونال عطفه الكبير، وسرعان ما ارتقى فى المناصب السياسية الخطيرة، وقام بأعبائها خير قيام. وقد عين نائبا للمجلس الملكى سنة ١٢٧٧ م، وظل زهاء ثلاث سنوات حاكما فى بلاد «يانج شو». وكان له من حسن السيرة ما دفع الأهلين إلى اعتباره مغوليا أكثر منه أجنبيا. وقد أقام ماركو بولو مع أبيه وعمه نحو سبع عشرة سنة فى خدمة الخاقان، كان هو فى خلالها أقربهم إلى مولاه وأصحبهم له وأحبهم إليه.

ماذا قصه علينا ماركو بولو أثناء إقامته بالصين؟ :—

ذكر ماركو بولو جملة بقاع فى آسيا الصغرى لا تمكن معرفتها الآن إلا بطريق الاستنباط. «فبلاخ» التى وردت فى كتابه ربما

كانت « بلخ » ، و « اسفاسنس » ربما كان إقليم « الشاش » . ولكن « بلكسام » مع جباله المشحونة بالمعادن ، وقطاره المعتدل الذى يستشفى المرضى بالسفر إليه ، ومع غنمه وخيله السريعة العدو ، والتى لصلابة حوافرها لا تحتاج إلى الانتعال بالحديد - يصح أن يكون إقليم « برخشان » القريب من منابع نهر جيحون وقد خطط ماركو بولو بقاع « كشغر وخوتان » وغيرها من أقاليم بخارى الصغرى . وما ذكره فى تخطيط هذه البلاد هو أحسن ما يقال فى جغرافيتها .

وقد حكى لنا الكثير عن سهول الصين الواسعة الباسمة وما تحتوى من كروم ، وقص علينا أخبار نزلها وأديرتها الكثيرة ومن فيها من الرهبان البوذيين ، ودور صناعة الملابس الحريرية والقطنية ، وكذا مدنها العامرة وريفها الجميل ؛ مما أثار خيال أمم الغرب . كذلك حكى لنا ماركو كيف كان المغول يروضون الفيلة ويستأنسونها بعد أن يقهروها . ووصف « نان كين » قاعدة الصين الجنوبية وصفا بديعا ، وذكر أن مدينة « قنساى » تعتبر أكبر مدن الدنيا ، وأنها تخترقها خلجان عليها اثنتا عشرة قنطرة ، وأن « كنفو » تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا إيطاليا من هذه المدينة ؛ وهى ميناؤها الذى بوساطته تتجر مع بلاد الهند وجزائر العطر .

وقد أدهش ماركو بولو العالم عندما تحدث عن حنا القسيس « Priest John » ، وأحاط اسم هذا الرجل بكثير من الأقاصيص العجيبة ؛ فذكر أنه كان زعيم « الكرائيت » ، وهم

قبائل تترية مسيحية كانت تعيش جنوب بحيرة بيكال ، وقد تزوج جنكيزخان زعيم المغول باحدى بنات هذا القس ؛ وأن قبلاى كان متزوجا من نفس هذه الأسرة . وقد بولغ فى وصف هذا الشعب المسيحى مبالغة أدت إلى اعتقاد أوروبا بأن فى بلاد الصين أمة مسيحية مستعدة للترحيب بالأوروبيين ، ومد يد المساعدة إليهم ؛ إلا أنه سرعان ما تبين أن تلك الاشاعات لم تكن مستندة على أساس من الصحة .

رجوع آل بولو إلى وطنهم :—

شعر آل بولو بحنين إلى وطنهم بعد سبعة عشر سنة ؛ كما أحسوا بأنهم أثاروا حنق بعض خواص الخاقان الأعظم ، وخشوا سوء العاقبة — لا سيما إذا مات قبلاى — فطلبوا من الخان الاذن لهم ؛ إلا أن مولاهم عز عليه أن يفارقوه . غير أن الفرصة سنحت لهم بعد ذلك ؛ لأن أرغون — إيلخان بلاد فارس والابن الأكبر لهولاكو أخى قبلاى — خطب إحدى حفيدات قبلاى ، فقرر الخان أن يرسلها بطريق البحر خوفا عليها من مشقة السفر البرى . وقد عهد بحراستها إلى ماركو بولو وذريته ؛ لما اشتهروا به من طول الخبرة فى الأسفار ؛ ولما عرفوا به من الولاء ، فسافروا فى ركابها سنة ١٢٩٢ م ، وأبحر البعث من جنوب بلاد الصين « زيتون » ، وزاروا عدة جزائر فى البحر المحيط ، ووصفها ماركو ؛ كما وصف جزائر يابو نيا (اليابان) ، وحدثنا عما فيها من كميات الذهب ، وذكر أن بحر الصين فيه أربعون وأربعمائة وسبعه

آلاف جزيرة معظمها عامر ، ووصف جاوة الكبرى بأنها أعظم جزائر الدنيا وأكثرها عطرا ؛ ولعله كان يريد « برنيو » إذ ما ذكره من الأوصاف لا ينطبق إلا عليها . وأما الجزيرة التى سماها جاوة الصغرى فهى سومطرة . وقد زار جزائر أندمان ونيقوبار ، وقال إن سيلان أو سرنديب محيطها أربعمائة وألفان من الأميال الايطالية فقط — لا كما كان يظنها القدامى من الاتساع — ثم وصف سواحل الهند لما أن وصل إليها ، وتوسع فى بيان عوائد أهلها البراهمة ؛ وقال إنهم فى مقدمة طوائف الهند ، وأنهم حكماء الملة الهندية ، وأنهم شمانيون (أى أهل شعوذة وسحر) وذكر أن فى الهند قبرا لبعض حوارى المسيح يزوره أهل الهند ، ويظهر حوله كثير من خوارق العادات . ولعله سمع هذا من بعض الناس . وبعد تخطيط الهند خطط بلاد فارس وبلاد العرب وقطعة من إفريقية الشرقية ، ووصف مدينة عدن باتساع تجارتها فى العطريات والتوابل التي تحمل منهـــا إلى بلاد الافرنج ؛ بوساطة البحر الأحمر فى سفن صغيرة تصل إلى السويس فى عشرين يوما . وكذلك وصف هرمز . ويظهر أنه مر بالبصرة وقال إن أحسن التمر يخرج من هذه المدينة ، وقال إنها فى إحدى طرق التجارة الهندية التى تقصد أوربا ، وأن بغداد منها على سبع عشرة مرحلة . وتحدث عن بوما وسيام وكوشن شينا فى الهند الصينية .

وقد ذكر الحبشة وزنجبار ومدغشقر ، والظاهر أنه سمع أوصافها من تجار الموانى التى مر عليها . وكانت معلوماته عن الحبشة غاية فى

الدقة . ويعتبر ماركو بولو أسبق الرحالة الذين عاشوا فى القرون الوسطى ، أمدونا بمعلومات جغرافية قيمة . ولم يهمل ماركو بولو وصف الأصقاع النائية ببلاد سيبريا ، وسواحل المحيط المتجمد الشمالى ، والعربات التى تجرها كلاب المنطقة المتجمدة الشمالية والدب الأبيض فتنزلق على الثلوج .

وصول ماركو بولو إلى بلاده :—

بعد أن أوصل أهل بولو حفيدة قبلاى خان إلى فارس ، استأنفوا السير إلى بلادهم مارين بمدينة تبريز ، ومنها إلى طرابزون حيث أبحروا إلى القسطنطينية قاصدين البندقية فوصلوها حوالى سنة ١٢٩٠ م . وبدأ ماركو بولو يقص على الناس أخبار البلاد التى زارها ، وقد أصغوا إليه فى بادىء الأمر بشىء من السخرية ، وأسموه المليونى لكثرة ما كان يجرى على لسانه من ملايين من الشعوب وملايين من العملة .

أسر ماركو بولو وسجنه :—

لما وصل ماركو كانت الحرب مستعرة بين البندقية وجنوة ، فاشترك فى الحرب ، وأسر فى سبتمبر سنة ١٢٩٨ م ؛ وفى أثناء سجنه صادف رجلا من أهل بيزة يدعى « رستكاتو » فأملى عليه وصفا لرحلاته ، فكتبها هذا بالفرنسية . ولا يزال هذا الكتاب باقيا إلى الآن يشهد بالفضل لصاحبه الذى قطع من الأرض ما لم يقطعه سائح قبله . ولما اخترعت آلة الطباعة سنة ١٤٥٦م ، وطبع ما

دونه ذلك الرحاله العظيم عن الأقطار المختلفة — أثارت أقاصيصه دهشة العالم، وترددصدى اسمه فى الأدب الأوربى؛ وبخاصة فى الأدب القصصى فى القرون الوسطى. ويعتبر ما كتبه ماركو بولو مرجع أهل أوربا عامةفى جغرافية قارة آسيا. وقد سماه بعضهم بمخترع جغرافية هذه القارة. وازدادت أهمية كتابته أيام أن كشف البرتغال عن طرقهم البحرية؛ حيث اثبتوا شيئا كثيرا مما قصه ماركو بولو بعد أن كان الناس يظنون أنه من المفتريات.

وتوفى ماركو سنة ١٣٣٤ م. بعد أن فتح برحلته باب الهجرة أمام هواة الارتياد والكشف.

التجارة فى العصور الوسطى

لا سبيل إلى تفهم أحوال التجارة فى العصور الوسطى ، ما لم يمهد لها بمقدمتين : أولاهما — خاصة بالفينيقيين . والثانية — خاصة بالطرق الرومانية .

مقدمتان

١ — الفينيقيون

(٢٢٠٠ — ١٢٠٠ ق . م) (١٢٠٠ — ٥٧٤ ق . م)

كان أهل فينيقية من أصغر أمم الأرض ، ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الاقدام والنشاط . ضربوا فى التجارة والملاحة بسهم ، حتى أصبحوا فى مقدمة أمم الأرض ثروة ونفوذا ، لعلمهم بمواطن الغنى ، وبالطرق الموصلة إليها : برا وبحرا . بلادهم ساحل ضيق يمتد على بحر المشرق أو البحر المتوسط ، شمال فلسطين بين جبال لبنان . وهذا البحر هو الذى كانوا أهل السيادة عليه قبل ظهور الاغريق والروم . وهذه البلاد أودية ضيقة تقع بين هضاب وعرة ممتدة إلى البحر ، وجبال هذه الناحية قد كسيت بالأشجار ، فكان فى القمم أرز لبنان المشهور ، وفى المنحدرات الصنوبر والسرو ، وفى السفوح أشجار النخيل ، وفى الأودية الزيتون والكروم والتين والرمان .

مدنهم : تتألف على طول الشاطىء الصخرى رءوس من البحر

أو جزر منه تكون منها مرافىء طبيعية ، وفى هذه الموانى أقام الفينيقيون مدنهم ؛ فقامت صور (تير) ورواد فى جزيرة يزدحم فيها السكان . أما مدينة جبيل وبيروت وصيدا (أو صيدون) فكانت فى اليابس . ولم تكن أرض هذه البلاد لتقوم بأود هذا العدد من الناس ؛ لذلك مال الفينيقيون إلى الملاحة والتجارة ؛ فكانت مدينة صيدا أهم مدن التجارة والصناعة أيام خروج الاسرائيليين من مصر ، وكانت صور محط رحال مندوبى البلاد منذ القرن الثالث عشر . م . وفى الواقع لم تكن فينيقية مع صغر حجمها خاضعة لحكومة واحدة ؛ بل كانت كل مدينة بضواحيها وقراها حكومة صغيرة قائمة بذاتها ؛ وكثيرا ما كانت تعترف بالزعامة لأقواها .

التجارة الفينيقية

أعمال الفينيقيين : عاش الفينيقيون على التجارة ، ومهروا فى صنع السفن وفى الملاحة . ساعدهم على ذلك جملة عوامل منها : غابات لبنان وخشبها الجيد من الأرز والتنوب ، ومنها موقع بلادهم الجغرافى على البحر بين مصر وأرض النهرين .

ولم يكن لسائر شعوب الشرق فى زمنهم من مصريين وكلدان ، ولا قبائل الغرب من أسبان وبرتغال وطليان — عهد بركوب البحر ؛ فجرأ الفينيقيون وحدهم فى تلك الأيام على تجشم السفر فى البحار للاتجار ؛ حتى صح أن يدعوا بحق عملاء تجارة العالم القديم ، وقادة البيع والشراء : يبتاعون من كل شعب سلعه ، ويتقايضون منه على

غلات البلاد الأخرى ؛ فأنشئوا بذلك علاقات تجارية مستحكمة: مع الشرق برا ، والغرب بحرا .

قوافلهم :— كان من عادة الفينيقيين أن يرسلوا فى البر قوافل تتجه وجهات ثلاث :

(١) إلى بلاد العرب لجلب : الذهب ، والعقيق اليمانى، والبخور والصبر ، وعطور بلاد العرب ، واللؤلؤ ، والعاج، والأبنوس، وريش النعام ، وقرود الهند .

(٢) إلى آشور وبابل؛ لتعود منها بأنسجة القطن والكتان؛ والخمر ؛ والأحجار الكريمة ، والماء المعطر ، وحرير الصين .

(٣) وتقصد القافلة الثالثة بقاع البحر الأسود ؛ لتستجلب منها الخيل والرقيق ، والأوانى النحاسية من مصنوعات سكان جبال قفقاسية .

أسطولهم التجارى : بنى الفينيقيون بخشب أرز لبنان المتين ؛ قوارب بأشرعة وعجاديف ، حملوا عليها متاجرهم البحرية وما مست إليه حاجتهم ؛ تغدو بهم وتروح فى أطراف بحر الروم ؛ بل اجترءوا على اجتياز جبل طارق ، وخرجوا إلى المحيط ، ثم وصلوا شواطى بريطانيا وغالة (فرنسا الحالية) ، وسافرت طائفة منهم فى خدمة أحد ملوك مصر «نخاو» (٦٠٩ — ٥٩٣ ق.م) ، وجازت بحر الروم لتطوف حول إفريقية — وقد تقدم ذكر هذا فى الكلام عن هيرودوت — كما غادرت قرطاجة حملة ضربت نحو شاطىء إفريقية إلى خليج غينا.

وقد كتب القائد البحرى « حانون » قصة هذه الرحلة .

وكانت سفنهم أيضا تعبر البحر الأحمر إلى أوميز التى يقال إنها اسم لما بين مصب السند وبمباى من الهندستان ، أو لرودسيا من إفريقية ، أو لبلاد اليمن .

مستعمراتهم :— أنشأ الفينيقيون مكاتب تجارية فى البلاد التى أتجروا فيها ، وهى مراكز حصينة واقعة على شاطىء بحر على مرفأ طبيعى ، يخرجون إليها بسلعهم ، فيأتى أهل تلك البـــــلاد بغلاتهم ، ويقايضون عليها كما يقايض اليوم تجار الاوروبيين زنوج إفريقية . وقد أقيمت أمثال هذه الأسواق فى قبرص ، وإليهـا رسموا طرقهم البحرية أولا ، ثم منهـا إلى جزائر بحر إيجة وأرض اليونان ، ثم أوغلوا فى مصر وكريت وصقلية ومالطة وسردينيا وشواطىء أسبانيا (مالقة وقادش) . وكانت أسبانيا فى عصرهم أغنى البلاد المعروفة بالمعـادن ، وبخاصة الفضة . كانوا يجلبون منها الرصاص والحديد والذهب ، والمقادير الوفيرة من الحبوب والنبيذ والزيت والشمع والفاكهـة والصوف . وقد اتخذوا هذه الأصناف أساسا للسلع التجارية التي يتداولونهـا فى أوروبا الغربية ، التى أوغلوا فى البحر إليهـا ، لجلب القصدير من مقاطعة كورنول ببريطانيـا ، والجلد والفراء والكهرباء (الكهرمان) ؛ وكان لهذا الأخير شأن كبير جدا فى تجارتهم لغلو ثمنـه ، ويظن أنهم وصلوا إلى بقاع بحر بلطق للحصول عليه . وكانوا يستبدلون كل هذا : بالبضائع الفينيقية من الأصباغ الأرجوانية التي مهروا فى استخراجها من الأصداف التي صادوها من شواطىء بلاد اليونان ، وبالملابس

والأنسجة الأرجوانية التى كان يستعملها الملوك والأمراء قديما ، ثم البضائع المعدنية النفيسة وغيرها ؛ إذ أن الفينيقيين كانوا يستوردون المواد الأولية المتنوعة ، ثم يعالجونها بالصناعة ، ويصدرونها إلى البلاد التى أتوا بالمواد الأولية منها .

هذا ، ولم يكن يخطر ببال الفينيقيين فى تأسيس هذه المكاتب التجارية إلا الاحتفاظ بمصلحتهم الخاصة . ولم يقلق الفينيقيون إلا من قيام تجارة الأمم الأخرى لمنازعتهم السلطة على البحار ، ومجاراتهم فى الملاحة والاتجار ؛ ومن ثم كانوا يكتمون الطريق التى يسلكونها عند عودتهم من الأقطار النائية ؛ ولذا لم يعرف أحد فى القديم الجهة التى جلبوا منها القصدير . وقد بالغوا فى إخفاء هذا السر ؛ حتى إنهم كانوا يغرقون السفن الأجنبية التى يصادفونها ؛ خشية أن تطلع على خطة سيرهم .

وكان لقرطاجة بنت فينيقية ، مكانة عظمى فى التجارة البرية والبحرية أيضا . وقد أسست فى موضع تونس الحالية قبل ظهور رومة بنحو قرن . وسرعان ما صارت غنية قوية ؛ إذ استولت على صقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط غربا ؛ وكذلك إفريقية الشمالية وأسبانيا الجنوبية . وأسست فيها جملة مدن ، أهمها قرطاجة الجديدة ؛ وفيها رسم الفينيقيون خططهم البحرية . وقد وصل حانون القرطاجى فى سياحته حول إفريقية غربا إلى خليج غانة وساحل كمرون . وسارت قوافلهم البرية فى إفريقية ؛ فوصلت إلى مصر والبحر

الأحمر ، ثم إلى جهات السودان جنوبا لجلب الذهب والعاج وريش النعام والأبنوس ، تستبدلها بغلات قرطاجة من الحبوب والنبيذ والملابس وغيرها مما يحتاج إليه أهل إفريقية فى ذلك الوقت . وكان غناهم من أسباب سقوطهم ؛ إذ اختلفوا مع اليونان على صقلية ، ثم حصلت بينهم وبين الرومان الحروب البونيـــة التى انتهت بادخال قرطاجة فى حوزة الرومان سنة ١٤٩ ق . م .

ب — الطرق الرومانية

إن شق الطرق وتعبيدها يعتبر من أنجح الوسائل فى رقى تجارة الأقليم . والمأثور عن المصريين القدماء أنهم كانوا أسبق أهل الأرض إلى إعداد الطرق ورصفها بالحجارة ونحوها . وكان للعبرانيين مثلها . أما اليونان فقد كانت لهم طرق كثيرة لم يعنوا برصفها وترميمها عناية أهل قرطاجة بها ؛ إذ كانوا يعتقدون أن الآلهة كفيلة بصيانتها .

كيفية إنشاء الطرق :

امتاز الرومان على الشعوب عامة باتقان الطرق ؛ فقد سلكوا فى إنشائها مسلكا خاصا بهم : « كانوا أولا يخططون الطريق ، ويدقون أوتادا تدل عليه وتحدده ، ثم ينزعون التراب منه بحفره إلى أن يصلوا إلى طبقة من الصلصال ؛ يدقونها بالمدقات حتى يفور هذا الصلصال ، ويبسطون عليها طبقة من الحجارة الصغيرة ، ثم يدقونها ثانية حتى تفور فى الطفل وتتماسك به وتكسبه صلابة ومتانة ، ثم يبسطون فوق هذه طبقة من الجص والرمل والطين ، تليها طبقة أخرى من الجص والرمل

والجير ، وبعدها طبقة من الحجارة الصغيرة ، ثم طبقة سميكة من الحجارة الصوانية الكبيرة . ولكى يكونوا منها سطحا مستويا خاليا من المرتفعات والمنخفضات والشقوق — كانوا ينحتون هذه الحجارة ويلصقونها بعضها ببعض . وقد كانت هذه الحجارة تقطع أحيانا فى أشكال سداسية منتظمة ، وتلصق بعضها ببعض إلصاقا محكما جدا ؛ حتى ما كان يميز الفاصل بين حجر وآخر إلا من اختلاف لونيهما .

وكان وسط الطريق أعلا فى مستواه من جانبيها ، وعلى الجانبين خندق تجرى فيه المياه . ولم يكن يسمح ببناء البيوت على أقرب من مئتى قدم إلى الطريق ، ولا أن تغرس الأغراس بجانبها ؛ لكى تبقى مكشوفة ؛ فلا يكون بقربها محل للصوص وقطاع الطرق يترصدون فيه المارة» .

أما عرض الطرق الكبيرة منها ؛ فقد كان لا يقل عن ٦٠ قدما . ويلاحظ فى هذه الطرق أنها كانت ممتدة فى خطوط مستقيمة ؛ فبمجرد أن تستولى الحكومة . الرومانية على الأراضى اللازمة لتلك الطرق (من غير أن تعوضها على أصحابها) تشرع فى إنشائها على النحو السابق . فان اعترضتها جبال شقتها ، وإن اعترضتها وديان ابتنت لها القناطر ، وإن صادفتها أنهار أقامت فوقها الجسور ، حتى لا تنحرف عن استقامتها إلا حينما يتعذر سيرها فى خط مستقيم ، أو حينما يدعو الحال إلى تعريجها لتمر بالمدن المختلفة .

تنظيم هذه الطرق :—

كان على جانبى الطريق المنشأ طريق صغير غير مرصوف ، يفصلونه بجدار وحجارة عالية . بين الحجر والذى يليه عشرة أقدام ؛ يرقاها الفارس إذا أراد الركوب ، وحجارة أخرى ينقشون عليها عدد الأميال إلى رومة . كما أنشئت الفنادق والنزل فى مواضع على هذه الطرق ، بين الواحد منها والذى يليه نصف يوم . وقد أنشأ أغسطس قيصر (٦٨ ق م — ١٤ م) فى هذه الطرق « أربطة » (محطات) للبريد على كل خمسة أميال ، وحمل المدن التى يمر بها نفقات هذا البريد ؛ وكان فى كل محطة أربعون فرسا مستعدة لنقل سعاة البريد وعمال الدولة ليل نهار ، وجعل لها جداول مضبوطة يعين فيها وقت وصول البريد وقيامه ؛ كجداول السفن البحرية والسكك الحديدية الآن . كل ذلك ليعلم الامبراطور فى رومة ، ما يحدث فى أنحاء الأمبراطورية من الحوادث ؛ بأسرع ما يمكن ، فيسهل إرسال الجنود بسرعة إلى مواطن الاضطراب . فنرى أنه لما ثار أهل أنطاكية فى عهد تيودوسيس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠ م) ؛ وصل خبر ثورتهم منها إلى القسطنطينية فى ظهيرة اليوم السادس ؛ والمسافة بينهما حوالى ستة وخمسين وستمائة ميل .

الغرض من إنشائها :—

ومن هذا تدرك أن الغرض الأول من إنشاء هذه الطرق كان حربيا ، لتسهيل الحركات العسكرية ، وتنقلها من مكان لآخر فى أنحاء

الأمبراطورية العريضة .

وكان الخارجون على الدولة من العصـــــاة والثوار يعلمون ما لهذه الطرق من أثر فى كبح جماح ثورتهم ؛ ولذا حاولوا مرارا أن يخربوا هذه الطرق ؛ ولـكنهم لم يكونوا يفلحون فى ذلك إلا نادرا ؛ لمتانة رصفها ؛ فانها لا تتلف الآن إلا بنفسها .

ومع أن الغرض الأول من إنشائها كان عسكريا ، إلا أن هـذه الطرق ساعدت على نشر التجارة وتوسيع نطاقها : فى عصر الرومان ، وفى العصور الوسطى ؛ بل وعلى نشر المدنية الرومانية فى بقـاع شتى من الأرض .

كما أنها كانت من أكبر العوامل التى ساعدت الأمم المتبربرة على غزو الدولة الرومانية ، وإسقاط الغربية منها (سنة ٤٧٦ م) ؛ بل وعلى انتشار الفوضى وتعطيل أعمال التجـارة والصناعة فى هذه الدولة الواسعة الأطراف ؛ مع أنها كانت من أعز دعائم الصولة فى الدولة . وإن المثل الدائر على الألسن للآن « جميع الطرق تؤدى إلى رومة » لدليل على تشعبها فى أنحاء الأرض . وهاك أهم تلك الطرق :

أهم الطرق :—

(١) الطريق الأول : يبتدىء من روما ، ويسير جنوبا إلى أن يبلغ برنديزى ؛ وهناك القوارب تنتظر المسافرين ؛ فيعبرون إلى مدينة «دورازو» ؛ ويسيرون منها فى خط مستقيم إلى القسطنطينية (بزنطيون) ويعبرون منها إلى آسيا ، ويسيرون جنوبا إلى «أنطاكيـة» فسواحل

الشام ؛ إلى أن يصلوا إلى القدس ؛ حيث تتفرع طرق مختلفة : بعضها يسير إلى مصر ، وبعضها إلى ما بين النهرين .

(٢) الطريق الثانى : يبتدىء من روما ، ويسير إلى الشمال الشرقى ، ويمر فرع منه ببلاد النمسا والبوسنة والصرب والبلغار ؛ إلى البحر الأسود ، ويسير الفرع الآخر شمالا إلى جنوب ألمانيا .

(٣) الطريق الثالث : يبتدىء من روما إلى الشمال مباشرة ، ويمر بقرب جنوة ومرسيليا ، ثم يتفرع منه فرعان : أحدهما يخترق بلاد فرنسا ويمر بمدنها إلى بولون ؛ وهناك السفن تعبر بالمسافرين إلى بريطانيا . والفرع الآخر يسير من مرسيليا إلى أسبانيا ، فيخترقها من أقصاها إلى أقصاها .

وكانت هناك عدا هذه السكك طرق أخري صغيرة ، ممتدة فى كل الأقطار والأقاليم الخاصة للامبراطورية الرومانية فى أوروبا وآسيا وإفريقية . وطول السكة من سور أنطونيوس فى بريطانيا ؛ إلى آخر المملكة الرومانية فى العراق عند أطراف بلاد فارس — كان نحو خمسمائة وأربعة آلاف ميل ؛ يسير فيها الجنود ، ويمر عليها التجار وأبناء السبيل آمنين مطمئنين ؛ كأنهم فى روما نفسها ؛ يستريحون فى مقاعد نصبت لهذا الغرض ؛ وإذا ما أعوزهم الماء أو أرهقهم العطش — وجدوا بقرب كل ينبوع طاسا مربوطا بسلسلة لهذا الغرض .

والخلاصة أن الرومان أدوا للتجارة خدمات جليلة بانشائهم هذه الطرق .

طرق التجارة البرية والبحرية بين أوروبا وآسيا

فى العصور الوسطى

مقدمة : قيود التجارة فى العصور الوسطى :

(١) كانت التجارة فى تلك القرون رهينة قيود كبلتها وعاقت حريتها : فأثمان السلع فى الأسواق لم تكن خاضعة لأبسط القوانين الطبيعية المعروفة لدينا الآن ؛ وهى قوانين العرض والطلب ، أو المضاربات المشروعة ؛ أو غير ذلك من العوامل التي تسيطر على تحديد الثمن فى عصرنا الحالى . وكان المتعارف وقتئذ أن لكل سلعة ثمنا يشمل فى نظرهم : ثمن المواد الخام ، وتكاليف الانتاج ، وأتعاب العامل . فكان لزاما على كل منتج أن يبيع سلعته بمثل هذا الثمن للمستهلكين مباشرة ؛ بدون « الرجل الوسيط » وهو التاجر .

(٢) حرمت الكنيسة تحريما باتا على المسيحيين إقراض المال بربا . ولما كان الاقراض حياة التجارة ، وعليه مدارها وانتعاشها ؛ فقد بقيت فى حيز ضيق ، وشلت حركتها بهذا القيد ، ثم عادت إلى الانتعاش لما التجأ التجار إلى اليهود يقترضون منهم ربا فاحش ؛ تغاضى عنه الملوك والحكومات وقتئذ نظير ما كان يفرض على هؤلاء المرابين من شتى الاتاوات . إلا أن الكنيسة لما لمست ما أصاب التجارة من شلل ؛ بسبب هذا القيد — أباحت الاقراض للمنتجين ، وظهرت

أخيرا البيوت المالية فى لمبارديا وغيرها ، وتأسست شركات تجارية فى شتى الجهات .

(٣) عدم وفرة المنارات التى ترشد السفن إلى الثغور ، وكانت غاية فى الرداءة لا تصلح للرسو .

(٤) كثرة المكوس التى فرضت على التجار فى الطرق العامة ، وعلى رءوس القناطر والمعابر ، وعند حدود المقاطعات فى المملكة الواحدة .

(٥) المكاره والأخطار العظيمة التى تعرضت لها التجارة ورجالها على أيدى اللصوص ؛ إذ كانت اللصوصية فى البحار عملا مشروعا ، يمارسه حتى أبناء الأشراف كانوا يرابطون بأسطولهم قرب السواحل ، يتربصون بالسفن التجارية التى يسوقها سوء الطالع إلى الوقوع فى أيديهم ؛ وسرعان ما ينشب عراك حامى الوطيس بين اللصوص والتجار ، ينتهى عادة : بأسر السفينة وسلب ما فيها ، وتقتيل أو تعذيب رجالها ، ثم إغراقها أو تحطيمها . ولم تكن الطرق البرية التى يسلكها التجار فى ذاك الزمن ، بأحسن حالا ، ولا أوفر أمانا من البحار . وما كان الأشراف أنفسهم يتورعون عن أن ينصبوا الشراك للتجار وهم فى طريقهم البرى ، ويحملوهم كغنائم إلى معاقلهم وقصورهم ، وهناك يجردونهم من متاعهم وأموالهم .

حال من الفوضى هددت التجارة فى تلك العصور ، وكادت تشل حركة التعامل ، لولا أن قيض الله لها جماعة تساندت

على دفع هـذا البلاء عنهـا ، وعرفت فى تاريخ القرون الوسطى باسم « عصبة الهنسى » . والهنسا فى الألمانية القديمة معناها العصبة .

الاتحاد الهنسى

ويظن أن أول اجتماع عقده التجار الألمان لهذه العصبـة ، كان مركـزه جوتلنده ، إحدى جزائر البحر الباطى ، حيث كانت السفن ترسو عليها فى طريقها إلى فنلندة أوليفونيا أو السويد . أما عاصمتها « ويسبى » فكانت أعظم مركز لتجارة الأسماك فى الباطى .

وفى منتصف القرن الثالث عشر ، اجتمع تجار مدينة « لوبك » الواقعة على نهر « التراف » ، مع مدينة « هامبورج » الواقعه على نهر « الألب » . وكلا المدينتين من مراكز التجارة الهامة حينذاك . ووقعوا معاهدة تقضى بحماية تجـارتهم فى البحر الباطى . وما حلت سنة ١٣٠٠ م إلا وكـانت هذه العصبة تضم نحو سبعين مدينة من كبريات المدن ، حتى إذا أشرف القرن الرابع عشر على الرحيل ، اشترك فى عضوية هذا الاتحاد جميع البلدان الشهيرة فى القـاطعات الممتدة من « ليفونيا » فى الروسيا شرقا إلى شواطىء « الزيدرزى » فى هولندة غربا ، ومن « ريفـــال » على خليج فنلنـده شمالا إلى مدينة « جتنجن » فى مقاطعة « هانوفر » جنوبا .

توزيع مدن الاتحاد :—

كـانت مدن الاتحاد الهنسى موزعة فى أربع دوائر رئيسية ؛

فكانت « لوبك » زعيمة الدائرة الأولى ، تضم تحت نفوذها « هامبرج وبريمن ورسنك » وغيرها . وعلى رأس الدائرة الثانية مدينة « كلن » ، ويدخل فى نفوذها نحو تسع وعشرين مدينة من أمهات المدن التجارية. بينما ترى مدينة « برنسويك » على رأس الدائرة الثالثة ، يدخل فى سلطانها ثلاثة عشر مدينة . أما « دنريج » الواقعة على أربعة أميال من مصب «الفستولا » ، فكانت زعيمة الدائرة الرابعة ، تخضع لها ثمان مدن . وبمضى الزمن اندمجت هذه الدوائر الأربعة تحت زعامة «لوبك» ، حيث كان أعضاء هذا الاتحاد يجتمعون فيها ممثلين لبلادهم ، ليقرروا ما يجدونه فى صالح التجارة وحمايتها من العابثين . وقد سنوا لها قوانين روعيت فى جميع البلدان الخاضعة لهذا الاتحاد ، ومن أبى الخضوع لها فنصيبه الخروج من عضويتها ، والحرمان من حمايتها .

نفوذ العصبة فى الخارج :—

امتدت نفوذ العصبة فى الخارج ، فأنشأت فى البلاد التى لا تنتمى إليها مراكز كانت بمثابة مستعمرات ألمانية فى وسط الممالك ، وجهزت تلك المراكز بمعدات تجارية : كالأرصفة التى ترسو عليها السفن ، والمستودعات التي تختزن فيها السلع . وأهم تلك المراكز « لندرة » فى انجلترا و« بروجس » فى البلجيك ، و «نوفجورود » فى الروسيا و« برجن» فى النرويج . ويحدثنا التاريخ أن العصبة أعلنت الحرب على إنجلترا فى عهد « ادوارد الرابع » . (١٤٦١ — ١٤٨٣ م) ؛ لأن الحكومة

شجعت الدهماء على مهاجمـــة مراكزها فى لندرة ، يبعثها على ذلك حقدها عليها. وانتصرت العصبة على الانجليز ، وأفلحت فى منع السفن الانجليزية من المتاجرة فى البحر البلطى . وأخيرا اضطر الانجليز إلى الزوال على إراحة العصبة التى أمات عليهم شروطـا لم تكن موافقة لرغباتهم.

وكانت مدينة بروجس « Bruges » فى البلجيك ؛ من أهم المراكز التجارية الخارجية، واعتبرت نقطة الاتصال بين تجارة الشمال والجنوب؛ وقد نالت من الغنى ما أصبحت به تنافس البندقية. أمامعرضها السنوى فقد كان التجـار من جميع أنحاء أوروبا يؤمونه : يبتاعون منه فواكه حوض البحر الأبيض المتوسط ، وحرير فلورنسا ، وزيوت فرنسا ، وخمور أسبانيا وإيطاليا .

ونوفجورود فى الروسيا كانت أعظم مركز تجارى فى شمال شرق أوروبا، وفى الممالك الواقعة شرق بولندة : تجتمع فيها منتجات روسيـا الطبيعية والصناعية ؛ كالشمع ، والجلود ، والحبوب ؛ ويستبـدل بهـا الصوف المصنوع فى ألمانيـا ، والخمور الواردة من وادى نهر الرين ، وخيوط الكتان الآتية من بلاد « الفلاندرز » .

وبرجن فى النورويج كانت أهم مركـز تجـارى : مع أيسلندة ، والأرض الخضراء ، وبلاد إيقوسيا (أسكتلندة) . وأهم السلع التى كان يتعامل فيها هى الخشب ، والفراء ، والأسماك .

ترى من هذا أن نفوذ العصبة اتسع حتى شمـل معظم أوروبا ،

وأصبحت العصبة قوة يخشى بأسها ؛ لما لها من النفوذ المالى ، والحربى أيضا. وقد هابتها الحكومات ، والأمراء ؛ فمنحوها امتيازات قيمة ، وأعفوها من دفع الضرائب . ولم ينته القرن الخامس عشر ؛ إلا وقد ملكوا زمام التجارة الأجنبية : فى اسكندناوه ، والدنمارك ، وبروسيا وبولونيا . وكانت السلع تنقل تارة على اليابس بوساطة الطرق الرومانية ، أو على الماء بوساطة الأنهار — لا سيما الرين ، والايزر ، والألب ، والأودر ، والفستولا — فأثرى رجالها إثراء عظيما ، وكان لهم أسطول عظيم لهذا النقل : أجروا بعض أجزائه فى الحروب الصليبية لنقل الأوروبيين إلى الأراضى المقدسة ؛ كما أنهم كانوا من أقوى العوامل على توكيد الصلات التجارية بين الشرق والغرب .

والخلاصة : أن هذه العصبة :—

أولا — أدت للتجارة — بل وللمدينة — أجل خدمة ، وأزالت من طريق التجارة ما كان يعترضها من عقبات .

ثانيا — أن أوربا مدينة لهؤلاء التجار الذين استطاعوا بجهودهم أن يحولوا الغابات والأراضى الموحشة فى الشمال ؛ إلى جنان فسيحة ، وأراض منتجة .

ثالثا — نشأت المدن الحافلة ؛ حيث كانت الأكواخ الحقيرة .

رابعا — أن ثراءهم الطائل أدى بهم إلى الترف والرفاهية ؛ فصعدت أوروبا بوساطتهم سلم الارتقاء الاجتماعى ، وتهذبت نفوس أهلها ، وتثقفت عقولهم .

اضمحلال العصبة :—

بدأت قوه العصبة فى الاضمحلال منذ القرن السادس عشر ؛ بسبب ما قام بين أعضائها من المنازعات ؛ فلم تستطع أن تحمل المدن على احترام قوانينهـــا . وما حلت سنة ١٥٣٥م إلا وأزلت الدنمارك والسويد احتكار التجارة الهنسية من البحر البلطى ، وفتحت الباب على مصراعيه للأمم كلها فى هذا البحر .

وفى سنة ١٥٩٨ م طردت الملكة اليصابات الانجليزية التجار الألمان من بلادها . ثم تسللت المدن الألمانية من هذه العصبة واحدة بعد الأخرى . والحقيقة أنه لم يعد لوجود هذه العصبة فائدة بعد أن توطد القانون ؛ واستتب النظام ، وأصبح فى مقدور كل مدينة أن تتاجر فى جو من الحرية ؛ ولها فى القوانين حمى وملجأ . ولم تحل سنة ١٨٨٨ م إلا وقد انحلت هذه العصبة ؛ بعد أن أسدت إلى التجارة خدمات جليلة فى ظلمات العصور الوسطى . وكانت بحق النواة الأولى لدوحة التجارة العصرية فى تلك الأقاليم .

* * *

أما وقد بينا لك أثر الرومان فى تمهيد الطرق التى ساعدت على توسيع نطاق التجارة ، وشفعنا ذلك بالقيود التى كبلت التجارة فى القرون الوسطى ، وأوضحنا كيف تغلب الأوروبيون حينذاك على ما صادفهم من عقبات — فلنذكر لك الآن الطرق التى كانت تنقل عليهـــا المنتجات من القارة الآسيوية إلى حدود أوروبا ، ثم المسالك التى

سلكتها التجارة من جنوب أوروبا إلى أواسطها :—

كان من أهم نتائج الحروب الصليبية. أن تطلعت أوروبا إلى خيرات الشرق ، وعملت على الحصول على نفائسه وما فيه من كنوز غنية . منذ ذلك الوقت رغب الأوروبى فى اقتناء حرير الصين والموصل ، وشاش الهند وجواهرها ، وعطور بلاد العرب ، وتوابل جزائر الهند الشرقية ، ولآلىء فارس ، فتوكدت أواصر الصلات التجارية بين أوروبا وآسيا ، وتولى نقل هذه المنتجات الآسيوية إلى أوروبا تجار شرقيون : معظمهم من العرب ، ربحت تجارتهم ، وأثروا من ورائها ثراء عظيما .

طرق الشرق

كانت منتجات الشرق تسلك فى طريقها إلى أوروبا طرقا مختلفة: أشهرها أربعة :

أولها — الطريق الباقى إلى الآن منذ القرن الثالث عشر ، من الهند إلى سواحل الغربية ؛ مارا بالبصرة على الخليج الفارسى إلى بغداد ، بطريق شط العرب ونهر دجلة . وكان التجار يصعدون فى دجلة من بغداد إلى نحو الموصل ، ثم يقطعون سهل الجزيرة مغربين إلى وادى نهر الأرند (العاصى) ، ثم إلى أنطاكية وسلوقية على بحر المشرق (الأبيض المتوسط) .

ثانيها — هو هذا الطريق بينه إلى نحو الموصل ، ثم يسلك التجار طريق الهضاب العالية : من أرمينية وآسيا الصغرى شرقا ،